# القرآن الكريم

عن إمام الأنبياء وخاتم المرسلين
محمد صلى الله عليه وسلم

الدار المصرية اللبنانية

# حديث القرآن الكريم

عن إمام الأنبياء وخاتم المرسلين

محمد صلى الله عليه وسلم

الناشـر : الـدار المصريـة اللبنانيـة
١٦ ش عبد الخالق ثروت ـ القاهرة
تليفون : ٣٩٢٣٥٢٥ ـ ٣٩٣٦٧٤٣
فاكس : ٣٩٠٩٦١٨ ـ برقياً : دار شادو
ص . ب : ٢٠٢٢ ـ القاهرة
رقم الإيداع : ١٨٩٩ / ٩٥
الترقيم الدولى : 7 - 184 - 270 - 977
جمـــع : آر ـ تك
العنوان : ٤ ش بنى كعب متفرع من السودان ـ الكيت كات
تليفون : ٣٤٦٣٦٣٢
طبـع : آمـــون
العنوان : ٤ عطفة فيروز ـ متفرع من اسماعيل أباظة
تليفون : ٣٥٤٤٣٥٦ ـ ٣٥٤٤٥١٧

الطبعة الأولى : ١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٥ م
تصميم الغلاف : صالح وحيد

# حديث القرآن الكريم

## عن إمام الأنبياء وخاتم المرسلين
## محمد صلى الله عليه وسلم

تأليـــف

**الشيخ محمد عبد الفتاح عفيفى**

إمام وخطيب مسجد السيدة زينب

النـــاشر

الدار المصرية اللبنانية

**بسم الله الرحمن الرحيم**

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾

صدق الله العظيم

الحمد لله.. والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله.. وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه

وبعـــد:

فلقد تحدث القرآن الكريم عن رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ حديثا مستفيضا .. تناول فيه إنسانياته التى لم يسامه فيها إنسان ما.. وأخلاقياته التى لم يدانه فيها بشر ما.. وسلوكياته التى علا فيها عمن سواه.. وصفاته التى لم يضارعه فيها واحد من الناس أجميعن.. ولمس جوانب متعددة من عظمته ـ صلى الله عليه وسلم ـ التى لم يع التاريخ فى أى فصل من فصوله أروع ولا أجل منها.. وبين الغاية التى من أجلها بعث.. والمهام التى كُلف بها.. وعِظم الأمانة التى حُمِّلها..!

وحديث القرآن الكريم عن إمام الأنبياء وخاتم المرسلين، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف.. القرشى.. الذى ينتهى نسبه إلى معد بن عدنان بن

إسماعيل ابن خليل الرحمن إبراهيم ـ صلوات الله وسلامه عليهم آجمعين ـ حديث خبير مُصدَّق.. لماذا..؟ لأن القرآن هو كلام الله.. علام الغيوب عز وجل.. وهو سبحانه يعلم خبايا النفوس.. وخفايا الصدور.. سبحانه:

﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾(١)

ولقد عايشت القرآن الكريم ـ بحمد الله وفضله ومنته ـ مايربو على الأربعين عاما.. حفظا.. ودراسة.. وتدريسا.. وغوصا فى خضم بحاره.. فبهرنى بعذب حديثه.. وسلاسة تعبيره.. ودقة تأليفه.. وجمال تركيبه.. وجذبنى مافيه من نصاعة حجة.. وسلامة منطق.. وقوة إقناع.. وجزالة بيان.. !!

وبما شد انتباهى.. ولفت نظرى أكثر وأكثر من بين أحاديثه المتعددة الجوانب.. المترامية الأطراف حديثه عن النبى الخاتم.. صاحب الرسالة الخاتمة.. رسول الله محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ سواء فى الكشف عن مكانته السامية عند رب العزة ـ تبارك وتعالى ـ ودرجته التى لا تُسامى فى الملأ الأعلى.. أو عن بشريته التى تسمو بشرية البشر أجمعين بمراحل لا نهاية لها.. تلك البشرية المؤيدة بوحى السماء..

(١) سورة سبأ: ٣

والمحاطة بعصمة الأنبياء. . والممدودة بالمدد الإلهى. . والرائية بالنور الربانى. . !!

أو فى عرض منهج دعوته، وإبراز جوانبه الرحيمة الحكيمة التى تتلاءم وفطرة الله التى فطر الناس عليها. .

أو فى عرض أساليب أعداء هذه الفطرة وهم يناصبونه ـ صلى الله عليه وسلم ـ العداء. . ويحاربونه بكل سلاح. . ويحاولون أن يطفئوا نور الهداية بأفواههم الآثمة. . ويوقفوا تيار الدعوة إلى الله عز وجل. . ثم. . وآياته البينات تنزل على قلبه المكلوم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لتمسح عبراته. . وتشد من أزره. . وتقوى من عزيمته . . وتضرب له المثل تلو المثل بأولى العزم من الرسل وغيرهم وبما تحملوه وأتباعهم من المؤمنين من أذى واضطهاد. . !

أو فى عرض قضية التوحيد عرضا يقوم على قوة الإقناع. . ونصاعة الحق. . وسلامة المنطق. . !

***

ولقد عايشت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما يربو على ثلث قرن. . دراسة. . وتدريسا. . وكم عجبت لهذه الشخصية الفذة التى عجزت الدنيا منذ أن كانت وإلى يوم الناس هذا، بل وإلى يوم أن يرث الله الأرض ومن عليها. . أن تنجب مثلها. . !!

لقد بدا لى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد دراسة شخصيته آنه قرآن حى. . يسير بين الناس. . يحسونه ويلمسونه. . لقد انتظم ـ صلى الله عليه وسلم ـ بسلوكه وأخلاقياته. . مع القرآن الكريم بمبادئه وتعاليمه وآدابه فى عقد واحد. . حباته أثمن اللآلئ وأغلى الجواهر. . !!

لقد بدا لى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بوضوح أنه والقرآن الكريم صفحتان لكتاب واحد. . إحداهما متلوة مقروءة. . والثانية مرئية محسوسة. . !!

****

وكنت مع شهر مولده الشريف ـ ربيع الأول ـ من كل عام أعايشه ـ صلى الله عليه وسلم ـ معايشة كاملة. . وتكون شخصيته العظيمة طوال هذا الشهر هى مدار دروسى، ومحاضراتى وخطبى. . وكم كنت أذوب حبا فى هذا النبى الكريم ـ صلوات ربى وسلامه عليه ـ وأنفعل بشخصيته الفريدة أيما انفعال. . وأتمنى فى قرارة نفسى أن أعبر عن هذا الإعجاب. . وذاك الحب. . بقلمى المتواضع. . لكن كنت أرانى دائما دون هذا المقام السامى بكثير. . . !!

وفى ربيع الأول من عام ١٤٠٩ من الهجرة النبوية الشريفة. . وجدت هذه الفكرة قد استولت على فكرى

تماما.. ووجدتنى أمسك بقلمى المتواضع وأخط هذه السطور مستأذنا سيدى وحبيبى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى جرأتى على الاقتراب من ساحة حياته الشريفة، وسيرته العطرة.. لأعايش شخصيته العظيمة الفذة كتابة، كما عايشتها دراسة وتدريسا..!!

وآمل أن أوفق فى عرض بعض جوانب عظمة هذه الشخصية الحبيبة إلى كل نفس، الأثيرة عند كل قلب.. على ضوء آيات من الكتاب العزيز: القرآن الكريم.. فإن وفقت فهو فضل من الله ـ عز وجل ـ منحنى إياه، وتفضل علىَّ به.. وإن كانت الأخرى فأسأله ـ سبحانه ـ العفو والصفح عن كل زلة.. وإقالة عثرتى.. والتجاوز عن خطئى.. وأسأل إخوانى القراء أن يتفضلوا ويهدوا إلىّ عيوبى فى هذا المؤلف وسواه.

كما أرجو أن يكون هذا المؤلف البسيط المتواضع عقدا فريدا.. حباته الثمينة آيات من الذكر الحكيم فى حديثها عن سيد الخلق أجمعين.. ولآلئه النفيسة جوانب من حياته المشرقة الوضَّاءة.. ويتكون من هذا وذاك عمل آمل أن يكون نبراسا يضئ دروب حياتنا فنسلكها على هدى وبصيرة..!!

****

وطريقتى فى هذا البحث المتواضع ـ بمشيئة اللـه سبحانـه ـ ستكون كما يلى:

١ ـ ترتيب مواضيعه وأبوابه حسب مراحل حياة سيدنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الشريفة.. وما سبق ولادته من إرهاصات، والمبشرات التى بشرت به ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبل أن يولد وذكرها القرآن الكريم.. ثم نتابع حياته الشريفة من ولادته إلى بعثته.. فمراحل الدعوة وماحدث فيها من أذى واضطهاد.. وتسلية القرآن الكريم له.. وتسريته عنه.. وشده لأزره.. وتقويته لعزيمته.. ثم دفاعه عنه صلى الله عليه وسلم.

٢ ـ آيات القرآن الكريم هى التى ستحدد الأبواب والمواضيع، وسوف توضع الآية ـ إن شاء الله تعالى ـ أو الآيات أعلى الصفحة، ومنها نأخذ عنوانا للموضوع الذى نريد أن نتناوله .. ولأن مراحل حياته ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما سبق ولادته.. هى التى ستفرض علينا الترتيب المطلوب.. فلن نتقيد بالترتيب الذى جاء فى المصحف الشريف عند ذكر الآيات التى تمثل رأس الموضـوع .. فربما قدمنا آية أو آيات مدنية قبل غيرها من المكية.. وربما جاءت آيات من الجزء الثلاثين ـ مثلا ـ قبل آيات من الجزء الأول.

***

والذى أريد أن أؤكد عليه هو: أن هذا الكتاب المتواضع ليس كتاب تفسير بالمعنى المتعارف عليه عند علماء التفسير.. وليس هو كتاب سيرة أو تاريخ بالمعنى العلمى لهذا المفهوم.. إنما هو مجرد خواطر حول آيات من القرآن الكريم تتناول فى حديثها وثناياها الكلام عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

لهذا.. أرجو ألا ينظر إليه على أنه كتاب تفسير.. ولا على أنه كتاب تاريخ؛ حتى لا أرمى بالتقصير هنا أو هناك.. وإنما ينظر إليه على أنه خواطر أملاها الحب الصادق للقرآن الكريم، ولمن نزل عليه القرآن الكريم ـ صلوات ربى وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ـ والمعايشة اليومية التى فرضتها طبيعة عملى كداعية إسلامى.. يخطب ويحاضر لأكثر من ربع قرن.. والمنهل الذى يرده يوميا وينهل منه هو كتاب الله ـ عز وجل ـ وسنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحياة هذا النبى الكريم التى تعد بحق النموذج الحى للإنسان الكامل..!

****

وإن كان ثمة من يستحق الإهداء.. فهو مقام سيدى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الأسنى والأسمى.. ثم المرحوم والدى ـ رحمه الله وغفر له وأسكنه فسيح جناته ـ

فهو ـ رحمه الله ـ بلا ريب الذى غرس فىَّ حب القرآن.. وحب من نزل عليه القرآن.. وحبب إلى نفسى وقلبى العمل فى حقل الدعوة إلى الله ـ عز وجل ـ وإلى دينه السمح الحنيف.. وسنة نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ الغراء..!!

وكان ـ رحمه الله ـ بسلوكه.. وأخلاقه.. وتعبده.. وحبه لله ولرسوله.. حافزا لى على أن أشق هذا الطريق.. وأسلك هذا السبيل..!!

أدعو الله ـ سبحانه ـ أن يوفقنى، ويسدد خطاى.. ويلهمنى الصواب.. ويجنبنى الزلل والخطأ، ويتقبل هذا العمل المتواضع منى.. ويجعله فى كفة حسناتى ووالدىّ.. وقارئى العزيز يوم القيامة.. آمين.

الاثنين المبارك: ٢٨ من ربيع الأول ١٤٠٩ هـ
٧ من نوفمبر ١٩٨٩ م

صلالة ـ ظفار. سلطنة عمان

**محمد عبد الفتاح عفيفى**

# الباب الأول

## ماقبل ميلاده الشريف صلى الله عليه وسلم

## الإرهاصات .. والبشارات

* أخذ العهد والميثاق على الأنبياء والمرسلين.
* دعوة أبيه إبراهيم عليه السلام.
* بشارات التوراة والإنجيل.
* معرفة أهل الكتاب به صلى الله عليه وسلم.
* صفته وصفة أصحابه فى التوراة والإنجيل.
* حادث الفيل.
* بشارات ذكرتها السنة.. وأخرى رواها المؤرخون.

**يتحدث القرآن الكريم عن:**

## ١ ـ أخذ العهد على الأنبياء أن يؤمنوا به ويؤازروه صلى الله عليه وسلم

## فيقـــــول:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾(١)

*** الإرهاص.. معناه.. والحكمة منه:**

اقتضت حكمة الله ـ تبارك وتعالى ـ أن يختار من بين خلقه عبادا.. فيجعلهم رسلا مبشرين ومنذرين.. ويحملهم

---

(١) سورة آل عمران: ٨١.

أمانة الدعوة إلى سبيله، ويكلفهم هداية البشرية إلى الصراط المستقيم.. وإخراجها من الظلمات إلى النور.

واقتضت حكمته ـ عز وجل ـ أن يمهد السبيل قبل ظهور كثير من الأنبياء والمرسلين.. فكان مايسمى «بالإرهاص» وهو: كمقدمة لظهور نبى من الأنبياء.. وأمارات سابقة على بعثته أو ميلاده من جانب الله ـ سبحانه وتعالى ـ تكشف عما سيكون لهذا الإنسان من خطر وشأن.. جاء فى القاموس المحيط: أرهص الله عبده.. جعله معدنا للخير.

وجاء فى المعجم الوسيط: الإرهاص شرعا: الأمر الخارق للعادة يظهر للنبى قبل بعثته.

والحكمة منه.. أنه بظهور تلك الأمارات تتهيأ القلوب لقبول الرسالة الجديدة.. وتستعد الأذهان لاستقبال ذلك المبعوث الهادى.. وتتطلع الأنظار إلى بزوغ شمس النبوة قبل إشراقتها..!

*** الإرهاص سنة من سنن الله تعالى فى كونه:**

إن رسل الله وأنبياءه كثيرون، لم يذكر القرآن الكريم منهم إلا النزر اليسير.. قال تعالى:

﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾(١)

(١) سورة النساء: ١٦٤

وقال سبحانه:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ ﴾(١)

روى الحاكم بسنده عن أبى ذر الغفارى ـ رضى الله عنه ـ أنه قال: قلت: يارسول الله.. كم كانت الأنبياء.. وكم كان المرسلون..؟ قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : **«كانت الأنبياء مائة ألف، وأربعة وعشرين ألف نبي، وكان المرسلون ثلاثمائة وثلاثة عشر رسولا»**.

ولقد تحدث القرآن الكريم عن كثير من الإرهاصات التى سبقت ميلاد أو بعثة كثير من الأنبياء والمرسلين.. كآدم.. وإسماعيل.. وإسحاق.. ويعقوب.. وموسى.. وداود.. وعيسى ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ ولكن الذى يهمنا أن نبينه تفصيلا ماكان من إرهاص لرسول الله محمد ـ صلى الله عليه وسلم.

## * الإرهاص لرسول الله صلى عليه وسلم:

كما جرت سنة الله ـ تعالى ـ أن يكون لبعض الرسل

---

(١) سورة غافر: ٧٨

إرهاصات سابقة على بعثتهم.. كان الشأن كذلك مع إمام الأنبياء، وخاتم المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم.

وبقدر ما كانت رسالته خطيرة الشأن بعد غيرها من الرسالات الأولى.. وبمقدار مكانته العظيمة عند الله ـ عز وجل ـ كان الإرهاص له ـ صلى الله عليه وسلم ـ أعمق فى التاريخ.. وأفسح مدى فى جوانبه العلمية.

أجل..! لقد تمت البشارات به ـ صلى الله على وسلم قبل مولده بآلاف السنين.. وكانت الإرهاصات له فى أعماق أعماق التاريخ البعيد.. فما من نبى من الأنبياء بعث فى أمة من الأمم.. إلا وأخذ الله ـ تبارك وتعالى ـ عليه العهد والميثاق لئن ظهر إمام أنبيائى.. وصفوتى من خلقى نبى آخر الزمان محمد.. فى حياتك وعهدك لتؤمنن به ولتنصرنه، وأنه لزام عليك أن تأخذ العهد على قومك أن يؤمنوا به، وينصروه ويؤازروه.. قال تعالى:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾(٢)

(١) عهدى وميثاقى
(٢) سورة آل عمران: ٨١

إن حديث القرآن الكريم فى هذه الآية الكريمة عن الإرهاص لرسول الله محمد.. يأخذ العهد والميثاق على كل نبى ورسول منذ فجر الحياة إلى عيسى فمن دونه.. بأن يؤمنوا به وينصروه.. أوضح من أن يحتاج إلى بيان.. يروى الألوسى نقلا عن ابن جرير عن على - كرم الله وجهه - أنه قال: لم يبعث الله نبيا.. آدم فمن بعده إلا أخذ عليه العهد فى محمد - صلى الله عليه وسلم - لئن بعث وهو حى ليؤمنن به ولينصرنه، ويأمره أن يأخذ العهد على قومه.. ثم تلا الآية الشريفة(١).

وقال القرطبى: الرسول هنا محمد - صلى الله عليه وسلم - فى قول على وابن عباس - رضى الله عنهما - واللفظ وإن كان نكرة فالإشارة إلى معين، كقوله تعالى:

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً ﴾

إلى قوله:

﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ ﴾(٢)

فأخذ الله ميثاق النبيين أجمعين أن يؤمنوا بمحمد - عليه السلام - وينصروه إن أدركوه، وأمرهم أن يأخذوا بذلك الميثاق على أممهم.

---

(١) ذكره ابن كثير والشوكانى فى فتح القدير وغيرهما.
(٢) الآيتان: ١١٢، ١١٣ من سورة النحل.

في هذه الآية الكريمة يخبرنا الحق ـ سبحانه وتعالى ـ بأنه أخذ الميثاق وهو العهد، على كل نبى من أنبيائه، أنه آتاهم الكتب والشرائع ـ وأنه سيبعث رسوله مصدقا لما معهم من كتبه وشرائعه، وأنه ـ تعالى ـ يفرض على الأنبياء، وعلى أممهم أن يكونوا مؤمنين بذلك الرسول الآتى بعد..! وأنهم ينصرونه إذا أدركهم فى عصورهم، وإن لم يدركهم فقد علموا به.

يقول ابن هشام فى سيرته: وكان الله ـ تبارك وتعالى ـ قد أخذ الميثاق على كل نبى بعثه قبله بالإيمان به، والتصديق له، والنصر له على من خالفه، وأخذ عليهم أن يؤدوا ذلك إلى كل من آمن بهم وصدقهم، فأدوا من ذلك ما كان عليهم من الحق فيه، يقول الله ـ تعالى ـ لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ ﴾ الخ. اهـ[1].

وبهذا يكون واضحا أن الإرهاص لسيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان مبدأً ساريا فى الرسالات كلها، ومتصلا بأول إشراقة نورانية من إشراقات الله ـ سبحانه ـ على هذا الوجود..!!

(١) سيرة ابن هشام ج١ ص ٢٥٠

وعــــن:

## ٢ ـ دعــوة أبيــه إبراهيــم

# يقـــــول:

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾(١)

من ملامح النبوة المحمدية المتلألئة فى جبين التاريخ.. والتى تمثل درة فى جيد الزمان.. ماجاء على لسان إبراهيم

(١) سورة البقرة، الأيات: ١٢٧ ـ ١٢٩.

وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ وهما يقيمان قواعد البيت الحرام ـ وما أثبته الله ـ تعالى ـ فى هذه الآيات الشريفة من سورة البقرة. . إذ يقول:

﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾

لكن. . ! لِمَ نعتبر هذا خاصا بسيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم. .؟؟ وقد كان بعد إبراهيم ـ عليه السلام ـ أنبياء كثيرون من ذريته أتوا من بعده. .؟؟

نعتبر أن ذلك خاص برسول الله محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأسباب:

**الأول** : أن الدعاء كان من إسماعيل مع أبيه إبراهيم، والأمة التى انحدرت منهما هى أمة العرب. : وأما غير العرب فلم يكونوا منسوبين إلى إسماعيل، وإن كانوا منسوبين إلى إبراهيم. .

**الثانى:** كان دعاء إبراهيم وإسماعيل فى أم القرى ـ مكة المكرمة ـ قلب الأمة العربية، ومهوى أفئدتهم. . والرسول الذى كان من العرب. . ولد فى هذه البقعة وبعث فيها. . بعد إسماعيل. . هو محمد بن عبد الله ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ.

**الثالث**: أن القرآن نفسه يوضح هذا المعنى ويؤكده فى قول الحق - عز وجل -:

﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾(١)

وفى قوله سبحانه:

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾(٢)

وفى قوله تعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾(٣)

والذى لاريب فيه.. أن فى هذه الآيات تفسيرا وتوضيحا لهذا الإرهاص.. ولتلك البشرى.. وهذه الدعوة التى جاءت على لسان إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام -.

ومما يزيد الأمر تأكيدا وتوضيحا مارواه الإمام أحمد فى

(١) سورة آل عمران: ١٦٤.

(٢) سورة التوبة: ١٢٨

(٣) سورة الجمعة. ٢

مسنده، وغيره، عن صاحب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ العرباض بن سارية ـ رضى الله عنه ـ أنه قال: سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول: «**إني عند الله خاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته، وسأخبركم عن أول ذلك.. دعوة أبي إبراهيم.. وبشارة عيسي بي.. ورؤيا أمي التي رأت، وكذلك أمهات النبيين يرين، وإن أم رسول الله ـ صلي الله عليه وسلم ـ رأت حين وضعته نورا أضاءت له قصور الشام**».

لقد كانت دعوة إبراهيم تلك.. أول الإرهاصات الخاصة برسول الله وضوحا.. وأصدقها فى دنيا الناس دلالة.. وأبلجها إشراقة..!!

وعــــن:

## ٣ ـ بشارات التــوارة والإنجيـل:

# يقـــول:

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾(١)

من عظيم مكانة النبى الخاتم، صاحب الرسالة الخاتمة، عند رب العالمين ـ عزو جل ـ أن نوه بذكره منذ بدء

(١) سورة الأعراف: ١٥٧.

الخليقة.. ففضلا عن أخذه ـ سبحانه وتعالى ـ العهد والميثاق على كل نبى من الأنبياء أن يؤمنوا به ـ صلى الله عليه وسلم ـ وينصروه.. فقد ذكر اسمه وصفاته فى العهدين القديم والجديد.. التوراة والإنجيل، لقد حفل هذان الكتابان بالكثير عن نبى آخر الزمان محمد بن عبد الله ـ صلوات ربى وسلامه عليه.

لقد ذكر ـ صلى الله عليه وسلم ـ مرات باسمه الشريف: محمد.. أحمد، وذكر مرات بصفاته الخلقية، والخلقية، وأحايين باسم مشتق من مادة الحمد.. وتصدق على أسمائه الشريفة: محمد.. أحمد.. محمود.. صلى الله عليه وسلم..!

وهاهو ذا الكتاب الخاتم.. الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.. القرآن الكريم.. يخبرنا فى جلاء ووضوح بأن التوراة والإنجيل قد حملا البشارة بهذا النبى الأمى، فى قول الحق سبحانه:

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾(1).

يروى البخارى بسنده عن عطاء بن يسار، أنه قال: لقيت

(1) سورة الأعراف: ١٥٧

عبد الله بن عمرو بن العاص، قلت: أخبرني عن صفة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في التوراة، فقال: «أجل.. والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفاته في القرآن:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾[1]

وحرزا للأميين، أنت عبدى ورسولى، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله تعالى حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح بها أعينا عميا، وآذانا صُما وقلوباً غلفا».

قال ابن إسحق: وقد كان، فيما بلغنى عما كان وضع عيسى بن مريم فيما جاءه من الله فى الإنجيل من صفة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مما أثبت يُحَنَّس[2] الحوارى لهم حين نسخ الإنجيل لهم عن عهد عيسى بن مريم - عليه السلام - في رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إليهم أنه قال: من أبغضنى فقد أبغض الرب، ولولا أنى صنعت بحضرتهم صنائع لم يصنعها أحد قبلى ما كانت لهم خطيئة، ولكن من الآن بطِروا[3] وظنوا أنهم يعزوننى[4] وأيضا للرب،

---

(١) سورة الأحزاب: ٤٥.
(٢) لعله يوحنا الحوارى
(٣) البطر: الأشر وهو شدة الفرح
(٤) أى: يغلبوننى، ومنه قوله تعالى: «وعزنى فى الخطاب» أى: غلبنى

ولكن لابد من أن تتم الكلمة التى فى الناموس، إنهم أبغضونى مجانا(١)، فلو قد جاء الْمُنْحَمَنَّا ـ بضم الميم وسكون النون وفتح الحاء والميم الثانية وتشديد النون مع فتحها هذا الذى يرسله الله إليكم من عند الرب روح القدس، هذا الذى من عند الرب خرج، فهو شهيد علىَّ، وأنتم أيضا، لأنكم قديما كنتم معى فى هذا، قلت لكم: لا تشكُّوا(٢)..

قال ابن هشام: والمنحمنا بالسريانية محمد، وهو بالرومية البَرْقَلِيطِس، صلى الله عليه وسلم(٣).

***

تأكد لدينا ـ إذن ـ أن الكتابين: التوراة والإنجيل حفلا بالبشارة بإمام الأنبياء وخاتم المرسلين محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذ ليس بعد شهادة رب العالمين ـ عز وجل ـ فى محكم كتابه الخاتم ـ القرآن الكريم ـ شهادة.. فإذا ماذكر فى أصح الكتب بعد القرآن تلك البشارة ـ البخارى:. وفى أقدم وأوثق كتب التاريخ والسيرة: ابن إسحق، وابن هشام.. زاد الأمر تأكيدا، ووصل إلى مرتبة: عين اليقين..!!

ونستأنس بما جاء فى الإصحاح الثامن من سفر التثنية بالتوراة فى سياق الحديث عن الأنبياء.. حيث يخاطب رب

(١) أى: باطلا.
(٢) أى: بلغتكم هذا حتى لاترتابوا فى محمد بعد بعثته ﷺ
(٣) ابن هشام جـ١ ص ٢٥٠

العالمين ـ سبحانه وتعالى ـ نبيه وكليمه موسى بقوله: «وسوف أقيم لهم نبيا مثلك، من بين إخوتهم، وأجعل كلامى فى فمه، ويُكلمهم بشئ آمره به، ومن لم يطع كلامه الذى يتكلم به فأنا الذى أنتقم منه».

ولعل واحدا يسأل: لِمَ نخص هذه البشارة بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ دون غيره من الأنبياء.. وقد كان بعد موسى وقبل محمد أنبياء كثيرون..؟؟ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين..؟؟

والجواب: أن اليهود أنفسهم بعد رفع عيسى ـ عليه السلام ـ كانوا ينتظرون نبيا موصوفا عندهم فى التوراة بهذه الصفات.. وذلك يؤكد: أنهم كانوا على علم برسول يأتى غير عيسى عليه السلام.

ثم.. إن الأنبياء الذين أتوا بعد موسى وقبل محمد كانوا كلهم من بنى إسرائيل.. أى: من أنفسهم وليسوا من إخوتهم.. ولم يأت من إخوتهم ـ العرب ـ نبى بعد موسى ـ إلا خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم..!

***

وبما جاء فى سفر التكوين.. إصحاح ١٧ فقرة ٢٠: «وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه.. هأنا أباركه وأثمره

بمأذماز». . وكلمة مأذماز: كلمة عبرية، ومعناها بالعربية، محمد صلوات الله وسلامه عليه.

****

*** وفى سفر التثنية إصحاح ١٨ فقرة ١٨ :**

« أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامى فى فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به»

وفى سفر أشعياء المكتوب بالأرمنية، ترجمة القسيس «أوسكان» الأرمنى طبع سنة ١٧٧٣ فى الباب ٤٢ تصريح باسم النبى «محمد» حيث قيل: «وأثر سلطته على ظهره، واسمه أحمد». . أى: علامة النبوة فى ظهره، وهى: خاتم النبوة. . !!

**بل تمت البشارة به ـ صلي الله عليه وسلم ـ قبل أن يخلق آدم**

أجل. . ! لقد بشر الله ـ تبارك وتعالى ـ الملأ الأعلى بحبيبه، وصفوته من خلقه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبل أن يخلق أبو البشر. . آدم نفسه ـ عليه السلام ـ وكان أول شئ وقع بصر آدم عليه بعد أن دبت فيه الحياة، وألقى الله تعالى فيه من روحه، فصار إنسانا. . هو: اسم إمام الأنبياء. . وخاتم المرسلين ـ حبيب رب العالمين. . محمد، مقرونا باسم الجلالة. . !

أ ـ جاء فى إنجيل برنابا فى الفصل التاسع والثلاثين: «فلما

انتصب آدم على قدميه.. رأى فى الهواء كتابة تتألق كالشمس.. نصها: لا إله إلا الله.. محمد رسول الله.. ففتح حينئذ آدم فاه، وقال: أشكرك أيها الرب إلهى.. لأنك تفضلت فخلقتنى.. ولكن أضرع إليك أن تنبئنى ما معنى هذه الكلمات: محمد رسول الله...؟؟

فأجاب الله: مرحبا بك ياعبدى آدم.. وإنى أقول لك: إنك أول إنسان خلقت.. وهذا الذى رأيته إنما هو ابنك الذى سيأتى إلى العالم بعد الآن بسنين عديدة..

**ب - وفى الفصل الحادى والأربعين:**

« فطردهما الملاك ميخائيل من الفردوس.. فلما التفت آدم رأى مكتوبا فوق الباب.. لا إله إلا الله.. محمد رسول الله..».

**جـ - وفى إنجيل يوحنا الإصحاح ١٦، فقرة ٧:**

«لكنى أقول لكم الحق: إنه خير لكم أن أنطلق.. لأنى إن لم أنطلق لم يأتكم الفارقليطس».. ولقد سبق: أن معنى هذه الكلمة بالعربية حرفيا: محمد صلى الله عليه وسلم..!

****

وصدق الله العظيم إذ يقول فى محكم كتابه:

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾(١)

لقد أخبر عيسى قومه بأن التوراة بشرت بنى إسرائيل به، وأنه ـ أى: عيسى عليه السلام ـ مصدق ما أخبرت عنه، وأنه مبشر بمن يأتى بعده، وهو الرسول النبى الأمى العربى.. أحمد.. فعيسى ـ عليه السلام ـ وهو آخر أنبياء بنى إسرائيل قد أعلن على الملأ من قومه البشارة بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم..

ولعل واحدا يقول: إن رسولنا اسمه: محمد، والذى بُشر به أحمد، ومحمود.. فكيف..؟

والجواب.. فيما رواه البخارى بسنده عن جبير بن مطعم ـ رضى الله عنه ـ أنه قال: سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول: «**إن لي أسماء.. أنا محمد، وأنا أحمد.. وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر.. وأنا الحاشر الذي يحشر الناس علي قدمي.. وأنا العاقب**» وفيما رواه مسلم عن أبى موسى الأشعرى ـ رضى الله عنه ـ قال: سمى لنا رسول الله ـ

(١) سورة الصف: ٦

صلى الله عليه وسلم ـ نفسه أسماء، منها ماحفظنا، فقال: «أنا محمد.. وأنا أحمد.. والحاشر.. والمقفى.. ونبى الرحمة.. ونبى التوبة.. ونبى الملحمة».. وأورد القرطبى حديثا، قال(١): ورُوى عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: «اسمى فى التوراة أحيد؛ لأنى أحيد أمتى عن الكفر، واسمى فى الزبور الماحى؛ محا الله بى عَبَدة الأوثان، واسمى فى الإنجيل أحمد، وأسمى فى القرآن محمد، لأنى محمود فى أهل السماء والأرض».

ومما يُستأنس به هنا.. مارواه الخازن عند تفسيره لآية سورة الصف:

﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾(٢)

«إن الحواريين قالوا لعيسى ـ عليه السلام ـ: ياروح الله.. هل بعدنا أمة..؟؟ قال عيسى: نعم.. أمة أحمد.. حكماء.. علماء.. أبرياء.. أتقياء.. كأنهم فى الفقه أنبياء.. يرضون من الله باليسير من الرزق.. ويرضى الله منهم باليسير من العمل..!!»

(١) لم يذكر الإمام القرطبى رحمه الله. سند هذا الحديث ولا مصدره، وإنما قال: رُوى.. بالبناء للمجهول.. والله أعلم.

(٢) سورة الصف: ٦.

إنه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ: محمد.. وهو أحمد.. ومحمود.. والماحى.. والحاشر.. والمقفى.. ونبى الرحمة.. ونبى التوبة.. ونبى الملحمة.. وكثرة الأسماء تدل على عظمة المسمى.. وليس هناك من هو أعظم فى خلق الله طرا من مصطفاه من خلقه.. إمام الأنبياء وخاتم المرسلين.. محمد..!!

لقد أفعم التاريخ بإشعاعات وضاءة.. كانت تشف فى جلاء عما كان يضمره الغيب من شأن هذه البقعة المباركة، ومن شأن الرسالة الخاتمة.. وكانت تعد بحق ملامح قوية لبعثة هذا النبى الأمى.. ومعالم على الطريق قبل ولادته..!!

**وعـــن:**

## ٤ ـ معرفة أهل الكتاب له ـ صلى الله عليه وسلم ـ معرفة جلية

# يقـــول:

أ ـ ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾(١)

ب ـ ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾(٢)

ليْس هناك فيما أعلمنا التاريخ.. وما فقهه الناس من

---

(١) سورة البقرة: ٨٩.

(٢) سورة الأنعام: ٢٠.

شئون دنياهم. . وواقع حياتهم. . معرفة أوضح وأجلى من معرفة الوالدين لأبنائهم. . إنها معرفة لا يخالطها شك. . أو تخامرها ريبة. . أو يقلل منها لبس. . !

ومعرفة أهل الكتاب: اليهود. . والنصارى. . رسول الله محمدا ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ كانت أوضح وأجلى من معرفة الأبوين لأحد أبنائهما. . كانوا يعرفونه باسمه وصفاته. . يعرفون مولده. . ومهجره. . بل ويعرفون بعض صفات أصحابه. . لقد فقهوا هذه المعرفة من العهدين: القديم والجديد. . وتوارثوها كابرا عن كابر.

وها هو ذا كتاب الله ـ عز وجل ـ الخاتم، القرآن الكريم، يؤكد هذه الدعوى:

﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا .. ﴾(١) ؟؟!

أجل . . ! يؤكد القرآن الكريم فى حديثه الصادق عن إمام الأنبياء وخاتمهم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن أهل الكتابين: اليهود. . والنصارى. . كانوا يعرفونه حتى قبل أن يولد معرفة جيدة. . أكثر من معرفة أحدهم لأبنائه. . ويقول سبحانه:

---

(١) سورة النساء: ٨٧

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُ ﴾(١)

يقول ابن كثير فى تفسيره لهذه الآية الشريفة: يخبر الله تعالى عن أهل الكتاب أنهم يعرفون هذا الذى جئتهم به كما يعرفون أبناءهم بما عندهم من الأخبار والأنباء عن المرسلين المتقدمين والأنبياء، فإن الرسل كلهم بشروا بوجود محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونعته وصفته وبلده ومهاجره وصفة أمته.

ويقول القرطبى: يريد اليهود والنصارى الذين عرفوا وعاندوا «والذين» فى موضع رفع بالابتداء، و «يعرفونه» فى موضع الخبر، أى: يعرفون النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم يقول : إنه مروى عن الحسن وقتادة وهو قول الزجاج.

ويقول الشوكانى: «الذين آتيناهم الكتاب» التوراة والإنجيل وغيرهما، «يعرفونه» رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «كما يعرفون أبناءهم» أى: فإن الإنسان لا يعرفه أحد كما يعرفه أبوه وأمه.

****

وكما تضافرت أقوال كبار المفسرين على هذا الرأى. . فقد

---

(١) سورة الأنعام: ٢٠

تضافرت آيات التنزيل الحكيم على تأكيد تلك القضية، فأوردها رب العالمين - عز وجل - فى صور شتى.. فتارة يؤكد أن معرفتهم له - صلى الله عليه وسلم - كمعرفة أحدهم لابنه تماما، كما فى هذه الآية الكريمة.. وتارة يستحثهم على الإيمان به وبما جاء به، مذكرا إياهم بأنه هو نفسه الذى بشرت به كتبهم، ثم يتوعدهم بأشد أنواع العقاب إن لم يؤمنوا.. فيقول عز وجل:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾(1)

وتارة يفضح أمرهم، ويكشف سرهم.. فيبين أن محمدا هذا هو نفسه الذى كانوا يتوعدون به المشركين من الأوس والخزرج، وأنهم كانوا كثيرا مايطلبون من الله النصر به - صلوات الله وسلامه عليه - فيقول:

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾(2)

---

(1) سورة النساء: ٤٧

(2) سررة البقرة: ٨٩

يقول الإمام الشوكانى: «يستفتحون» أى: كانوا من قبل يطلبون من الله النصر على أعدائهم بالنبى المبعوث فى آخر الزمان الذى يجدون صفته عندهم فى التوراة.

ويقول القرطبى.. قال ابن عباس: كانت يهود خيبر تقاتل غطفان، فلما التقوا هزمت يهود، فعاذت يهود بهذا الدعاء، وقالوا: إنا نسألك بحق النبى الأمى الذى وعدتنا أن تخرجه لنا فى آخر الزمان إلا تنصرنا عليهم، قال: فكانوا إذا التقوا دعوا بهذا الدعاء فهزموا غطفان، فلما بعث النبى محمد - صلى الله عليه وسلم - كفروا به.

ويقول ابن[1] هشام: قال ابن إسحق: وحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة، عن رجال من قومه، قالوا: إن مما دعانا إلى الإسلام - مع رحمة الله تعالى وهداه - لما كنا نسمع من رجال يهود، كنا أهل شرك، أصحاب أوثان، وكانوا أهل كتاب، عندهم علم ليس لنا، وكانت لاتزال بيننا وبينهم شرور، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا: إنه تقارب زمان نبى يبعث الآن نقتلكم معه قتل عادٍ وإرم، فكنا كثيرا ما نسمع ذلك منهم، فلما بعث الله رسوله - صلى الله عليه وسلم - أجبناه حين دعانا إلى الله - تعالى - وعرفنا ما كانوا

---

(١) سيرة ابن هشام جـ١ ص ٢٣٠

يتوعدوننا به، فبادرناهم إليه، فآمنا به، وكفروا به، ففينا وفيهم نزل هؤلاء الآيات من البقرة:

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾(١) الخ.

## * بسبب معرفته هاجر أحبارهم إلى يثرب:

ولأن اليهود كانوا يعرفون كل شئ عنه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أين سيولد.. وإلى أين سيهاجر.. تركوا الشام بما فيها من رخاء، ورفاهية، وأسباب الترف، تركوا ديارهم.. وهاجروا إلى يثرب قبل ميلاده بقرون عديدة.. انتظارا لخروجه وبعثته.

يروى ابن هشام فيقول: قال ابن إسحق: وحدثنى عاصم ابن عمر بن قتادة، عن شيخ من بنى قريظة، قال لى: هل تدرى عمَّ كان إسلام ثعلبة بن سعية، وأسيد بن سعية، وأسد ابن عبيد(٢)..؟ قال: قلت: لا، قال: فإن رجلا من يهود أهل الشام، يقال له: ابن الهيَّبان، قدم علينا قبيل الإسلام لسنين، فحل بين أظهرنا، لا والله.. ما رأينا رجلا قط لايصلى الخمس أفضل منه(٣)، فأقام عندنا، فكنا إذا قحط عنا

---

(١) سورة البقرة : ٨٩.

(٢) تنفرمن بنى هدل إخوة بنى قريظة.

(٣) أى: مارأينا مثله فى العبادة.

المطر قلنا له: اخرج يا ابن الهيَّبَانِ فاستسقِ لنا، فيقول: لا والله حتى تقدموا بين يدى مخرجكم صدقة.. فنقول له: كم..؟ فيقول: صاعا من تمر، أو مُدين من شعير، قال: فنخرجها، ثم يخرج بنا إلى ظاهر حَرَّتِنَا فيستسقى الله لنا، فو الله مايبرح مجلسه حتى تمر السحابة ونُسقى، قد فعل ذلك غير مرة ولا مرتين ولا ثلاث، قال: ثم حضرته الوفاة عندنا، فلما عرف أنه ميت، قال: يا معشر يهود.. ماترونه أخرجنى من أرض الخمر والخمير إلى أرض البؤس والجوع..؟، قال: قلنا: إنك أعلم..!، قال: فإنى إنما قدمت هذه البلدة أتَوَكَّفُ[1] خروج نبى قد أظل زمانه[2]، وهذه البلدة مُهاجره، فكنت أرجو أن يبعث فأتبعه.. وقد أظلكم زمانه.. فلا تُسبَقُنَّ إليه يامعشر يهود.. فإنه يُبعث بسفك الدماء[3]، وسبى[4] الذرارى والنساء ممن خالفه، فلا يمنعكم ذلك منه..؟ فلما بعث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحاصر بنى قريظة، قال هؤلاء الفتية ـ وكانوا شبابا أحداثا ـ : يابنى قريظة.. والله إنه للنبى الذى كان عهد إليكم فيه ابن الهيَّبان.!، قالوا: ليس به.. قالوا:

(١) أنتظر خروجه وأستشعره.

(٢) أشرف عليكم وقرب.

(٣) قتل من يرد دعوته ويكفر بها.

(٤) أي: استرقاق الذرية والنساء.

بلى.. والله إنه لهو بصفته..!!، فنزلوا وأسلموا وأحرزوا دماءهم وأموالهم وأهليهم..!!

هكذا ينبؤنا التاريخ: «وما ينبئك مثل خبير».. بأن أحبار اليهود خاصَّة.. واليهود عامة.. كانوا يعرفون رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ معرفة جيدة لا لبس فيها ولا خفاء.. وأن معرفتهم تلك حملت الكثير منهم على أن يهاجروا من هنا وهناك إلى يثرب.. دار هجرته.. ومثواه الأخير.. يترقبون بعثته ليؤمنوا به ويتبعوه.. فلما بعث ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ غلبت الشقوة على الكثير منهم، ولم ينتفع بما عرف إلا القلة القليلة.. وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾(١)

## * وآمن سلمان الفارسى رضى الله عنه:

وبسبب معرفة اليهود والنصارى لرسول الله محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لاسمه.. وصفاته.. ومولده.. ومهجره.. وزمن خروجه.. راح سلمان الفارسى يتنقل من

---
(١) سورة البقرة: ٨٩

مكان إلى آخر.. ومن خدمة حبر إلى ثان وثالث ورابع.. وهو ينشد النور.. ويبحث عن الحقيقة.. وينقب عن هذا الرجل النبى العربى الذى وصف له على لسان أكثر من واحد من علمائهم وأحبارهم.. وأراد الله به الخير.. فمهد له السبيل حتى حمل إلى يثرب.. وفيها وجد الخير الذى ينشده.. وأبصر النور الذى يبتغيه.. وقابل نبى الهدى محمدا ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بعد هجرته.. وسرعان ما آمن به.. واتبعه.. لكن.. كان دون ذلك جهد ومشقة.. وضياع ماله.. وفقد حريته..وفقر وحاجة ورحلة بعد رحلة..!! فكيف تم ذلك..؟؟

ونترك ابن هشام يحدثنا عن ابن إسحق.. بسنده الذى ينتهى إلى سلمان نفسه ـ رضى الله عنه ـ وهو يقول:

كنت رجلا فارسيا من أهل أصبهان، من أهل قرية يقال لها: جَيٌّ، وكان أبى دهقان(١) قريته، وكنت أحب خلق الله إليه، لم يزل به حبه إياى حتى حبسنى فى بيته كما تحبس الجارية، اجتهدت فى المجوسية(٢) حتى كنت قطن(٣) النار الذى يوقدها، لايتركها تخبو ساعة.

---

(١) أى: شيخ القرية وخبيرها.

(٢) المجوسى هو: من يعبد النار ويعظمها.

(٣) أى: خادمها الذى لا يجعلها تنطفئ.

قال: وكانت لأبى ضيعة عظيمة، فشغل فى بنيان له يوما، فقال لى: يابنى.. إنى قد شغلت فى بنيانى هذا اليوم عن ضيعتى، فاذهب إليها فاطلعها، وأمرنى فيها ببعض مايريد، ثم قال لى: ولا تحتبس عنى، فإنك إن احتبست عنى كنت أهمَّ إلىَّ من ضيعتى..! وشغلتنى عن كل شئ من أمرى..!

قال: فخرجت أريد ضيعته التى بعثنى إليها، فمررت بكنيسة من كنائس النصارى، فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون، وكنت لا أدرى ما أمر الناس لحبس أبى إياى فى بيته، فلما سمعت أصواتهم دخلت عليهم أنظر مايصنعون، فلما رأيتهم أعجبتنى صلاتهم، ورغبت فى أمرهم، وقلت: هذا والله خير من الدين الذى نحن عليه، .فوالله ما برحتهم حتى غربت الشمس، وتركت ضيعة أبى فلم آتها، ثم قلت لهم: أين أصل هذا الدين..؟ قالوا: بالشام، فرجعت إلى أبى وقد بعث فى طلبى، وشغلته عن عمله كله، فلما جئته، قال: أى بنى.. أين كنت..؟ أو لم أكن عهدت إليك ما عهدت..؟

قال: قلت: يا أبت.. مررت بأناس يصلون فى كنيسة لهم، فأعجبنى مارأيت من دينهم، فوالله مازلت عندهم حتى غربت الشمس.. قال: أى بنى..! ليس فى ذلك الدين خير، دينك ودين آبائك خير منه.. قلت له: كلا.. والله إنه

لخير من ديننا..!، فخافنى.. فجعل فى رجلى قيدا ثم حبسنى فى بيته.

فبعثت إلى النصارى، فقلت لهم: إذا قدم عليكم ركب من الشام فأخبرونى بهم.. فقدم عليهم ركب من الشام تجار من النصارى فأخبرونى بهم، فقلت لهم: إذا قضوا حوائجهم وأرادوا الرجعة إلى بلادهم فآذنونى[1] بهم.. فلما أرادوا الرَّجعة إلى بلادهم ألقيت الحديد من رجلى ثم خرجت معهم حتى قدمت الشام.. فلما قدمتها قلت: من أفضل أهل هذا الدين علما..؟، قالوا: الأسقُفُّ[2] فى الكنيسة.. فجئته، فقلت له: إنى قد رغبت فى هذا الدين، فأحببت أن أكون معك، وأخدمك فى كنيستك فأتعلم منك وأصلى معك.. وكان رجل سوء.. يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها، فإذا جمعوا إليه شيئا منها اكتنزه لنفسه ولم يعطه المساكين، حتى جمع سبع قلال من ذهب ووَرِق[3]، فأبغضته بغضا شديدا لما رأيته يصنع، ثم مات، فاجتمعت إليه النصارى ليدفنوه، فقلت لهم: إن هذا كان رجلَ سَوْءٍ يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها، فإذا جئتموه بها اكتنزها لنفسه ولم يعط

---

(١) فأعلمونى بخبرهم

(٢) هو عالم النصارى.

(٣) فضة.

المساكين منها شيئا. . فقالوا لى: وما علمك بهذا. .؟، قلت لهم: أنا أدلكم على كنزه. . فأريتهم موضعه، فاستخرجوا سبع قلال مملوءة ذهبا وورقًا، فلما رأوها قالوا: والله لا ندفنه أبدا. . فصلبوه ورجموه بالحجارة، وجاءوا برجل آخر فجعلوه مكانه.

يقول سلمان ـ رضى الله عنه ـ: فما رأيت رجلا لايصلى الخمس أرى أنه كان أفضل منه، وأزهد فى الدنيا. . ولا أرغب فى الآخرة، ولا أدأب ليلا ولا نهارا منه. . فأحببته حبا لم أحبه شيئا قبله مثله. . فأقمت معه زمانا. . ثم حضرته الوفاة فقلت له: يافلان. . إنى كنت معك. . وأحببتك حبا لم أحبه شيئا قبلك، وقد حضرك ماترى من أمر الله تعالى، فإلى من توصى بى. .؟ وبم تأمرنى. .؟، قال: أى. . بنى، والله ما أعلم اليوم أحدا على ماكنت عليه، فقد هلك الناس، وبدّلوا، وتركوا أكثر ما كانوا عليه إلا رجلا بالموصل، وهو فلان، وهو على ماكنت عليه، فالحق به. . !

فلما مات وغُيِّب لحقت بصاحب الموصل، فقلت له: يافلان إن فلانا أوصانى عند موته أن ألحق بك، وأخبرنى أنك على أمره، فقال لى: أقم عندى، فأقمت عنده، فوجدته خير رجل على أمر صاحبه، فلم يلبث أن مات، فلما حضرته الوفاة قلت له: يافلان. . إن فلانا أوصى بى إليك،

وأمرنى باللحوق بك، وقد حضرك من أمر الله ماترى، فإلى من توصى بى..؟ وبم تأمرنى..؟ قال: يابنى.. والله ما أعلم رجلا على مثل ماكنا عليه إلا رجلا بنصيبين، وهو فلان، فالحق به.

فلما مات وغُيِّب لحقت بصاحب نصيبين، فأخبرته بخبرى، وما أمرنى به صاحباى، فقال: أقم عندى، فأقمت عنده، فوجدته على أمر صاحبيه، فأقمت مع خير رجل فوالله مالبث أن نزل به الموت، فلما حُضِرَ قلت له: يافلان.. إن فلانا كان أوصى بى إلى فلان، ثم أوصى بى فلان إليك، فإلى مَن توصى بى..؟ وبم تأمرنى؟ قال: يابنى.. والله ما أعلمه بقى أحد على أمرنا آمرك أن تأتيه إلا رجلا بعمورية من أرض الروم، فإنه على مثل ما نحن عليه، فإن أحببت فأته، فإنه على أمرنا..!

فلما مات وغُيب لحقت بصاحب عمورية، فأخبرته خبرى فقال: أقم عندى، فأقمت عند خير رجل على هدى أصحابه وأمرهم، قال: واكتسبت حتى كانت لى بقرات وغُنيمة.. ثم نزل به أمر الله، فلما حُضِر قلت له: يافلان.. إنى كنت مع فلان فأوصى بى إليك.. فإلى من تُوصى بى..؟ وبم تأمرنى..؟ قال: أى بنى.. والله ما أعلمه أصبح اليوم أحد

على مثل ما كنا عليه من الناس آمرك به أن تأتيه.. ولكنه قد أظل زمان نبى.. وهو مبعوث بدين إبراهيم ـ عليه السلام ـ يخرج بأرض العرب.. مُهاجَرُه إلى أرض بين حرَّتين[1] بينهما نخل، به علامات لا تخفى: يأكل الهدية.. ولا يأكل الصدقة.. وبين كتفيه خاتم النبوة.. فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل..!!

قال: ثم مات وغُيِّب، ومكثت بعمورية ما شاء الله أن أمكث، ثم مربى نفر من كلب تجار، فقلت لهم: احملونى إلى أرض العرب وأعطيكم بقراتى هذه وغُنيمتى هذه، قالوا: نعم، فأعطيتهموها، وحملوني معهم، حتي إذا بلغوا وادي القرى ظلمونى، فباعونى من رجل يهودى عبدا، فكنت عنده، ورأيت النخل، فرجوت أن يكون البلد الذى وصف لى صاحبى، ولم يحق فى نفسى، فبينا أنا عنده إذ قدم عليه ابن عم له من بنى قريظة من المدينة، فابتاعنى منه، فاحتملنى إلى المدينة، فوالله ماهو إلا أن رأيتها وعرفتها بصفة صاحبى فأقمت بها، وبعث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأقام بمكة ما أقام لا أسمع له بذكر، مع ما أنا فيه من شغل الرق، ثم هاجر إلى المدينة، فوالله إنى لفى رأس عذق[2] لسيدى أعمل له فيه بعض العمل، وسيدى جالس تحتى، إذ أقبل ابن

(١) الحرة : كل أرض ذات حجارة سوداء
(٢) عنقود النخل.

عم له، حتى وقف عليه. فقال: يافلان.. قاتل الله بنى قَيْلَة(١)، والله إنهم الآن لمجتمعون بقباء على رجل قدم عليهم من مكة اليوم، يزعمون أنه نبى..!!

فلما سمعتها.. أخذتنى العُرَواءُ(٢) حتى ظننت أنى سأسقط على سيدى، فنزلت على النخلة، فجعلت أقول لابن عمه ذلك: ماذا تقول..؟ فغضب سيدى، فلكمنى لكمة شديدة، ثم قال: مالك ولهذا..؟ أقبل على عملك.

فلما أمسيت أخذت شيئا من التمر كنت قد جمعته ثم ذهبت به إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو بقباء، فدخلت عليه فقلت له: إنه قد بلغنى أنك رجل صالح، ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة، وهذا شئ كان عندى للصدقة، فرأيتك أحق الناس به، ثم قربته إليه، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لأصحابه: «كلوا» وأمسك يده فلم يأكل، فقلت فى نفسى: هذه واحدة..!، ثم انصرفت عنه فجمعت شيئا، وتحول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة، ثم جئته به، فقلت له: إنى قد رأيتك لا تأكل الصدقة، فهذه هدية أكرمتك بها.. فأكل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - منها، وأمر أصحابه

---

(١) هى أم الأوس والخزرج.

(٢) ما يشبه الرعدة والانتفاضة من البرد.

فأكلوا معه، فقلت فى نفسى: هاتان ثنتان، ثم جئت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو ببقيع الغوقد تبع جنازة رجل[1] من أصحابه، علَيَّ شملتان[2] لى، وهو جالس فى أصحابه، فسلمت عليه، ثم استدرت أنظر إلى ظهره هل أرى الخاتم الذى وصف لى صاحبى..؟؟، فلما رآنى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ استدبرته عرف أنى أستثبت فى شئ وصف لي، فألقى رداءه عن ظهره، فنظرت إلى الخاتم، فعرفته، فأكببت عليه أقبله وأبكى.. فقال لى رسول الله ـ: صلى الله عليه وسلم ـ: «تحول» فتحولت، فجلست بين يديه، فقصصت عليه حديثى.. فأُعجب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يسمع ذلك أصحابه.

ثم شغل سلمان الرق حتى فاته مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بدر، وأحد، قال سلمان: ثم قال لي رسول الله ـ صلي الله عليه وسلم ـ : «كاتب ياسلمان»، فُكاتبت صاحبى على ثلثمائة نخلة أحييها له بالفقير[3]، وأربعين أوقية، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأصحابه: «أعينوا أخاكم»، فأعانونى بالنخل، الرجل بثلاثين وَدِيَّة[4]، والرجل بعشرين ودية، والرجل بخمس عشرة ودية،

---

(١) الميت هو: كلثوم بن الهرم.. قاله أبوذر.
(٢) الشملة: كساء غليظ يلتحف به.
(٣) أى: بالحفر والغرس.
(٤) صغار النخل.

والرجل بعشر، يعين الرجل بقدر ما عنده.. حتى اجتمعت لى ثلثمائة ودية، فقال لى رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «اذهب ياسلمان فَفَقّر[1] لها، فإذا فرغت فأتنى أكن أنا أضعها بيدى» ففقرت وأعاننى أصحابى حتى إذا فرغت جئته فأخبرته، فخرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - معى إليها، فجعلنا نقرب إليه الودى ويضعه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بيده، حتى فرغنا، فوالذى نفس سلمان بيده ما ماتت منها ودية واحدة، فأديت النخل، وبقى علىَّ المال.. فأتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بمثل بيضة الدجاجة من ذهب من بعض المعادن، فقال: «ما فعل الفارسى المُكاتب..؟» قال: فدعيت إليه، فقال: «خذ هذه فأدها مما عليك ياسلمان»، قلت: وأين تقع هذه يارسول الله مما علىَّ..؟، فقال: «خذها فإن الله سيؤدى بها عنك» فأخذتها، فوزنت لهم منها - والذى نفس سلمان بيده - أربعين أوقية، فأوفيتهم منها، وعَتَقَ سلمان، فشهدت مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الخندق حُرًّا، ثم لم يفتني معه مشهد..!!

***

أرأيت معى.. كيف كان أحبار اليهود.. وأساقفة النصارى

---

(١) احفر لها.

على علم تام باسم رسول الله .. وصفاته.. ومولده..
ومهجره.. وزمن خروجه..؟؟ وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ﴾(١)!!

(١) سورة الأنعام: ٢٠.

**وعــــن :**

## ٥ ـ صفته ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصفة أصحابه فى التوراة والإنجيل

# يقـــول:

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾(١)

---

(١) سورة الفتح : ٢٩ .

لم تقتصر البشارات التى بشرت به ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ على ذكر صفاته وفقط، بل تعدت تلك البشارات ذلك إلى ذكر صفات أصحابه وأتباعه الذين سيؤمنون به ويتبعونه ـ رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ـ فتقوى بهم دعوته، ويشتد بهم ساعده.

وها هو ذا الكتاب الخاتم «القرآن الكريم» يخبرنا أن الله تعالى ضرب مثلين لرسول الله وأتباعه.. أحدهما: فى التوراة، والثانى: فى الإنجيل.

أما مثلهم الذى ضربه العزيز الحكيم ـ سبحانه وتعالى ـ فى التوراة فقد مثلهم بقوم هم: رهبان الليل، فرسان النهار، غلاظ على عدوهم كغلظة الأسد على فريسته، رحماء بعضهم على بعض:

﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ﴾(١)

البهاء والوقار يجلل وجوههم، وأنوار الهداية تعلو جباههم:

﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ﴾(٢).

---

(١) سورة الفتح: ٢٩.
(٢) سورة الفتح: ٢٩.

وآما مثلهم الذى ضربه العزيز الحكيم ـ سبحانه وتعالى ـ فى الإنجيل . . فقد مثلهم بشجرة نبتت على ساق واحدة، ثم راحت تتكاثر بسرعة هائلة، فخرجت أفراخها من جذعها وعِرْقها، أى: ساقها، ومافتئت هذه الشجيرات الوليدة حتى نمت واستغلظت فأضحت شجرة عملاقة قوية، كثيرة الفروع والأغصان، تعجب الناظرين إليها من قوتها، وحسنها، وتشابك فروعها، وامتداد أغصانها:

﴿ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾(٥).

هكذا صور رب العالمين ـ سبحانه وتعالى ـ إمام أنبيائه وخاتم مرسليه، وصفوته من خلقه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحوله أصحابه ومن قَبِلَ دعوته، واتبع هداه. . بتلك الصورة التى تنبئ عن القوة والعزة، وتزينها المودة والرحمة،

(١) فرخه.
(٢) قواه.
(٣) أى: صار ذلك النبات الوليد غليظا قويا.
(٤) فاستقام على أعواده.
(٥) سورة الفتح: ٢٩.

وتحيط بها هالة من الجلال والبهاء والوقار، ويزخرفها نور الهداية فيجعلها مصدر فرح وبهجة للمحبين، ومصدر غيظ وحزن وحسرة للشانئين. . !

ذكرت تلك الصورة. . الرحيمة. . الوقورة. . القوية. . لمحمد وأصحابه فى الكتابين: التوراة والإنجيل. . فكانت بشارة قوية بالنبى الخاتم وصحبه.

ومن ثم. . كان أهل الكتابين: اليهود. . والنصارى على علم تام بصفات رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وصفات بعض أصحابه - رضوان الله تعالى عليهم أجمعين - تلك الصفات الشخصية التى تميز بعضهم عن بعض - أما صفاتهم العامة على ضوء هذه الآية الكريمة من سورة الفتح فقد كانت بالنسبة لليهود والنصارى واضحة جلية.

يروى الحافظ أبو القاسم الطبرانى بسند ينتهى إلى جبير بن مطعم - رضى الله عنه - قال: «خرجت تاجرا إلى الشام، فلما كنت بأدنى الشام، لقينى رجل من أهل الكتاب، فقال: هل عندكم رجل نبيا. .؟؟، قلت: نعم. . ! قال: هل تعرف صورته إذا رأيتها. .، قلت: نعم، فأدخلنى بيتا فيه صور، فلم أر صورة النبى - صلى الله عليه وسلم - فبينا أنا كذلك إذ دخل رجل منهم علينا، فقال: فيم أنتم. .؟ فأخبرناه، فذهب

بنا إلى منزله، فساعة ما دخلت نظرت فرأيت صورة النبى - صلى الله عليه وسلم - وإذا رجل آخذ بعقب النبى - صلى الله عليه وسلم - قلت: من هذا الرجل القابض على عقبه..؟؟، قال: إنه لم يكن نبى إلا بعده نبى إلا هذا النبى فإنه لا نبى بعده، وهذا الخليفة بعده، وإذا صفة أبى بكر رضى الله عنه».

ويروى أبو داود بسند ينتهى إلى الأقرع مؤذن عمر - رضى الله عنه - قال: «بعثنى عمر إلى الأسقف فدعوته. فقال له عمر: هل تجدنى فى الكتاب..؟، قال: نعم، قال: كيف تجدنى..؟ قال: أجدك قرنا، فرفع عمر الدرة وقال: قرن مه..؟ قال: قرن حديد، أمير شديد، قال: كيف تجد الذى بعدى..؟ قال: أجد خليفة صالحا غير أنه يؤثر قرابته..!، قال عمر: يرحم الله عثمان - ثلاثا - ..! قال: كيف تجد الذى بعده..؟ قال: أجده صدأ حديد، قال: فوضع عمر يده على رأسه، وقال: يادفراه.. يادفراه(١)، قال: ياأمير المؤمنين.. إنه خليفة صالح، ولكنه يستخلف حين يستخلف والسيف مسلول، والدم مهراق..!»

***

(١) الدفر فى الأصل: النتن،ومنه قيل للدنيا: أم دفر، وعمر بهذا القول يظهر تألمه وحسرته لما سيصيب الأمة بعده من فرقة وخلاف.. والله أعلم.

لقد كان شأن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وشأن أصحابه قبل أن يولد بقرون وقرون أوضح من شمس الضحى بالنسبة لأهل الكتابين اليهود والنصارى. . !!

**وعــــن:**

## ٦ ـ حادث الفيل الذى يعد إرهاصا قويا لرسول الله صلى الله عليه وسلم

## يقــول:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ۝٥ ﴾(١)

إن حادث الفيل يعد من أوضح الملامح، وأوضح الأمارات، وأقوي الإرهاصات لميلاد إمام الأنبياء وخاتم المرسلين سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبه يؤرخ لميلاده الشريف.

يقول ابن كثير: هذه ـ يعنى هزيمة أبرهة وجيشه ـ من

(١) سورة الفيل.

النعم التى امتن الله تعالى بها على قريش، فيما صرف عنهم من أصحاب الفيل الذين كانوا قد عزموا على هدم الكعبة، ومحو أثرها من الوجود، فأبادهم الله وأرغم آنافهم، وخيب سعيهم، وأضل عملهم، وردهم بشر خيبة، وكانوا قوما نصارى، وكان دينهم إذ ذاك أقرب حالا مما كان عليه قريش من عبادة الأوثان.. ولكن كان هذا من باب الإرهاص والتوطئة لمبعث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإنه فى ذلك العام ولد على أشهر الأقوال.

ولسان حال القدرة «الإلهية» يقول: لم ننصركم يامعشر قريش على الحبشة لخيريتكم عليهم، ولكن صيانة للبيت العتيق الذي سنشرفه ونعظمه ونوقره ببعثة النبى الأمى محمد خاتم النبيين..! اهـ.

وإليك قصة الفيل نرويها بالمعنى، وبإيجاز وبتصرف كبير، على ضوء ما رواها: مقاتل، وابن إسحق، والواقدى، وابن جرير، وكبار المفسرين من أمثال: ابن كثير، والقرطبى، والألوسى، والشوكانى، وغيرهم.

نقول ـ والله المستعان ـ: إن أبرهة أمير اليمن من قبل النجاشى، بنى كنيسة بصنعاء، لم ير مثلها فى زمانها، وسماها: القليس، وأراد أن يصرف إليها حج العرب،

فغضب رجل منهم، وخرج حتى أتى هذه الكنيسة فأحدث فيها. . ! وغضب لذلك أبرهة غضبا شديدا، وحلف ليسيرن إلى الكعبة حتى يهدمها، تم أمر الحبشة فتهيأت وتجهزت، ثم سار ومعه الفيل، وهو سلاح لم تستعمله العرب قبل، ولم تعرفه. . !

وهال ذلك العرب وأعظموه، وفظعوا[1] به، ورأوا جهاده حقا عليهم. . !، لكن أبرهة كان ينتصر على قبائلهم قبيلة قبيلة حتى وصل إلى مشارف مكة. . !

ولما نزل أبرهة قريبا من مكة، بعث رجلا من الحبشة على فيل له حتى انتهى إليها، وساق إلى أبرهة أموال تهامة من قريش وغيرهم، وأصاب فيها مائتى بعير لعبد المطلب بن هاشم، وهو يومئذ كبير قريش وسيدها. . وهمت قريش ومن كان بالحرم من سائر الناس بقتاله، ثم عرفوا أنهم لا طاقة لهم به، فتركوا ذلك.

وبعث أبرهة فى طلب سيد أهل مكة وشريفها، وقدم عبد المطلب عليه، وكان أوسم الناس وأجملهم وأعظمهم هيبة ووقارا. . فلما رآه أبرهة أجلَّه وأعظمه، وأكرمه عن أن يجلس تحته، وكره أن تراه الحبشة يجلس معه على سرير ملكه، فنزل

(١) أى: كان له وقع شديد وأليم فى نفوسهم.

من سريره، وجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جنبه. . ثم قال لترجمانه: قل له: ماحاجتك. .؟؟، فقال عبد المطلب: حاجتى أن يَرد علىَّ الملك مائتى بعير أصابها لى، وحينذاك قال أبرهة: قد كنت أعجبتنى حين رأيتك، ثم قد زهدت فيك حين كلمتنى. . !! أتكلمنى فى مائتى بعير أصبتها لك. . وتترك بيتا هو دينك. . ودين آبائك. . قد جئت لهدمه لاتكلمنى فيه. .؟؟

قال له عبد المطلب: إنى أنا رب الإبل. . وإن للبيت ربا سيمنعه. . !!، وقال أبرهة: ما كان ليمتنع منى. . ! قال عبد المطلب: أنت وذاك. . !!

ورد أبرهة على عبد المطلب إبله، وخرج عبد المطلب ومن معه إلى شعاب الجبال يعتصمون بها، وينظرون ماذا سيحدث بعد أن تعلقوا بأستار الكعبة وحلقها، مناشدين رب البيت أن يحمى بيته. . وكان مما قاله عبد المطلب فى مناشدته لرب البيت سبحانه وتعالى:

لاَهُــمَّ إن العبــد يَـمْـ      نع رحله فامنع حـلالك(١)
لا يغلــبن صليبهــم      ومحالهم(٢) عَـدْواً(٣) مِحَالك

(١) أى: سكان الحرم، وهو بكسر الحاء: القوم المتجاورون.
(٢) المحال: القوة.
(٣) اعتداء

إن يدخلوا البلد الحرا م فأمرٌ مَا[1] بدالك

وقيل: إن عبد المطلب لما أخذ بحلقة باب الكعبة، قال:

يارب لا أرجو لهم سواكا يارب فامنع منهم حماكا
إن عدو البيت من عاداكا إنهم لن يقهروا قُواكا

وأصبح أبرهة فعبَّأ جيشه، وهيأ أخطر سلاح تعرفه البشرية آنذاك.. الفيل..! .. فماذا حدث..؟ .. لقد حُبس الفيل، فوقف ساكنا لايبدى حراكا.. لقد أبى أن يواصل سيره نحو البيت..! وحاولوا أن يحملوه على القيام ومواصلة السير بالضرب حينا.. وبإدخال المحاجن[2] فى أسفل بطنه أحيانا أخرى.. لكنه لم يستجب لهذا كله، فوجهوه إلى الشام ثم إلى اليمن فهرول فى كل، فأعادوا توجيهه إلى البيت فلم يتقدم خطوة واحدة.

يالغرابة ماحدث..؟!.. أيرى الفيل من عظمة البيت.. ورب البيت.. مالايراه هؤلاء الجبابرة العتاة المتغطرسون..؟؟ أجل.. إنه يرى مالايرون..!!

وركب القوم رءوسهم ونحّوْا جانبا مكان العظة والعبرة مما

(١) أى.. شئ ما ظهر لك

(٢) عصا فى طرفها حديد.

حدث.. وهموا أن يواصلوا سيرهم بعد هذا النذير.. ضاربين عرض الحائط بما حدث لفيلهم، ذلك السلاح الخطير الرهيب ـ ومن سنة الله فى خلقه ـ أنه ـ سبحانه ـ يملى للظالم، وينذره بالإنذار تلو الإنذار، فإذا لم يَرْعَوِ ويثبْ إلى رشده، ويرجع عن غيه وعتوه، ويقلع عن غطرسته وظلمه.. أخذه فلم يفلته.. أخذه أخذ عزيز مقتدر..!!

وهذا ماحدث لأبرهة تماما وجيشه..! لقد ركبوا رءوسهم، ولم يثوبوا إلى رشدهم، وهموا أن يواصلوا سيرهم.. ففاجأتهم القدرة الإلهية بما لم يخطر لهم على بال.. وبما لا قبل لهم به..! .. فماذا حدث..؟؟ قد حدث أمر أغرب وأدهش من الأول.. لقد رأوا شيئا عجيبا.. ماذا رأوا..؟؟.. رأوا جماعات من الطير آتية من ناحية البحر، ومقبلة عليهم..! .. إنها جند ربك العزيز الذى لا يغلب.. القادر المهيمن الذى لا يقهر.. جبار السموات والأرض.. مَن أمره بين الكاف والنون إذا قال لشئ: كن، فيكون..!

وماذا تحمل هذه الجماعات من الطير..؟، إنها تحمل شيئا أفتك من الصواريخ عابرة القارات، وأخطر مما استُحدث اليوم بواسطة علم التكنولوجيا من قاذفات.. إنها أنكى من

القنابل الذرية أو الهيدروجينية، وأفظع من النابالم، وأقوى مما لم تصل إليه يد البشر بعد. . !

كم زنة ما يحمل الطائر الواحد من أطنان. . مادام لها هذا التأثير الهائل. . الرهيب. . والأثر المرُيع. . ؟؟

مهلا. . مهلا. . ! فليس ما صنعته يد الإله القادر ـ سبحانه وتعالى ـ كالذى صنعته يد الإنسان مهما أوتى من أسباب العلم، ووصل إلى قمة التقدم. . !

لقد كان كل طائر يحمل ـ كماقيل ـ ثلاثة أحجار. . حجرا فى منقاره، وفى كل رجل حجرا. . كل حجر من هذه الحمولة الهائلة التأثير، العظيمة الأثر، كحبة العدس وفقط. . ولقد قيل: إن كل حجر من هذا السجيل كتب عليه اسم صاحبه. . وكان الطائر لا يخطئه. . !

ماذا كانت نتيجة هذا الهجوم الإلهى القاهر الظافر. . ؟؟ كانت نتيجته أن جند أبرهة أصبحوا كورق شجر أكلته الدواب ثم طحنته بأسنانها فصار قطعا صغيرة. . ثم لفظته على الأرض. . !

ومن الغريب المدهش. . أن أبرهة نفسه لم يمت فى مكان الحادث، بل حمل إلى عاصمة ملكه، وهو تتساقط أنامله أنملة أنملة، حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر. .

فمات هناك؛ ليكون عبرة لمن وراءه.. لقد سجل رب العالمين - عز وجل - هذا الحدث الإلهى الهائل فى محكم كتابه.. فكان بعد بعثته - صلى الله عليه وسلم - معجزة من معجزاته، كما أنه حدث قبل مولده، قال تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ۝٥ ﴾(١)

ويقول واحد ممن شهد هذه المعركة شعرا، وهو نفيل بن حبيب، العربى الذى أسره أبرهة وحمله معه إلى مكة.. يقول بعد المعركة:

أين المفرُّ والإلهُ الطالبُ ... والأشرمُ(٢) المغلوب ليس الغالب

ويقول أيضا:

حمدت الله إذ أبصرت طيرا ... وخفت حجارة تُلقى علينا
فكل القوم يسأل عن نُفيل(٣) ... كأن علىَّ للحُبشان دينا(٤)

---

(١) سورة الفيل

(٢) الأشرم هو: أبرهة

(٣) كانوا يبحثون عنه ليدلهم على طريق العودة.

(٤) القرطبى وابن كثير

## ٧ ـ بشارات ذكرتها السنة.. وأخرى رواها المؤرخون:

نلمس ـ بمشيئة الله سبحانه ـ هذا الجانب لمسا خفيفا، لأن غرضنا فى هذا المؤلف، حديث القرآن الكريم عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لكن إتماما للفائدة.. نشير بإيجاز إلى ما ورد فى السنة الصحيحة من بشارات وإرهاصات، ونعرّج سريعا على ماورواه المؤرخون فى هذا الجانب.

أما البشارات التى ذكرتها السنة الصحيحة.. فقدروى الحاكم فى مستدركه.. والبيهقى فى دلائل النبوة.. وأحمد فى مسنده عن العرباض بن سارية ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال:

**«إني عند الله خاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته.. وسأخبركم عن أول ذلك:**

**أ ـ دعوة أبي إبراهيم.**

**ب ـ وبشري أخي عيسى بي.**

**جـ ورؤيا أمي التي رأت، وكذلك أمهات النبيين يَرَيْن.. وإن أم**

**رسول الله ـ صلي الله عليه وسلم ـ رأت حين وضعته نورا أضاءت له قصور الشام» .**

تكلمنا فى الصفحات السابقة عن :

أ ـ دعوة إبرهيم

ب ـ بشرى عيسى . . لأنهما مما تحدث عنه القرآن الكريم .

وعن الثالثة ـ رؤيا[١] أمه ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحدثنا هو نفسه ـ صلى الله عليه وسلم ـ عنها، فيقول: «**وإن أم رسول الله ـ صلي الله عليه وسلم ـ رأت حين وضعته نورا أضاءت له قصور الشام**»[٢] .

وكان ذلك إيذانا بأن دعوته المباركة سوف تنتشر فى ربوع الأرض، ويصل مدها العظيم إلى الشام، وبُصرى، وغيرها من المدن والممالك، فتعمها بنورها ويضئ ذلك النور للبشرية دروب الحياة، فيسلكونها على هدى وبصيرة .

ويتحدث عنها ابن إسحق بأسلوب غير الجازم بصحتها، إذ يقول:

ويزعمون ـ فيما يتحدث الناس، والله أعلم ـ أن آمنة ابنة وهب أم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كانت تحدث:

---

(١) رؤيا بالألف منامية، وبالتاء المربوطة بصرية .

(٢) رواه الحاكم والبيهقى وأحمد . .

أنها أُتيت ـ حين حملت برسول الله، صلى الله عليه وسلم ـ فقيل لها: إنك قد حملت بسيد هذه الأمة، فإذا وقع إلى الأرض، فقولى: أعيذه بالواحد، من شر كل حاسد، ثم سميه محمدا.. وأنها رأت ـ حين حملت به ـ أنه خرج منها نور رأت به قصور بُصرى من أرض الشام. اهـ.

وفى فترة الحمل هذه.. رأي جده عبد المطلب فى نومه: كأن سلسلة من فضة خرجت من ظهره، لها طرف فى السماء، وطرف فى الأرض، وطرف فى الشرق، وطرف فى الغرب، ثم عادت كأنها شجرة على كل ورقة منها نور، وأن أهل المشرق وأهل المغرب يتعلقون بها، فقصها.. فأولها المعبرون له: بأنه سيرزق بمولود من صلبه يتبعه أهل المشرق وأهل المغرب، ويحمده أهل السماء وأهل الأرض، وسيكون له شأن(١)..!

***

وكان حفر بئر زمزم على يد جده عبد المطلب، ونجاة والده من الذبح بفدية مائة من الأبل.. من أقوى الإرهاصات لميلاده الشريف ـ صلى الله عليه وسلم.

***

(١) البستان لعلى القيروانى.
والروض الأنف للسهيلى.

لقد أصبحت الدنيا كلها وكأنها على موعد مع إشراقة النور المحمدى، والهدى الإلهى، بعد أن دخل فتى مكة وناسكها الذى كان شعاره : أما الحرام فالممات دونه..!، بفتاة مكة حسبا وشرفا وورعا.

ومع إشراقة فجر يوم الاثنين الثانى عشر من ربيع الأول عام الفيل ٥/٨/ ٥٧٠م ولد إمام الأنبياء وخاتم المرسلين.. محمد بن عبد الله بن عبد المطلب.. فكان ميلاده خيرا.. وبركة.. ورحمة.. ونورا للبشرية كلها.. صلوات الله وسلامه عليه ...!!

# الباب الثاني

## مرحلة طفولته .. صلى الله على وسلم

* إيواء الله تعالى له صلى الله عليه وسلم.
* هدايته تعالى له صلى الله عليه وسلم.
* إغناؤه تعالى له صلى الله عليه وسلم.
* شرح صدره صلى الله عليه وسلم.
* رفع ذكره صلى الله عليه وسلم.

**عـــــن:**

## ١ - مرحلة طفولته.. ورعاية الله تعالى له صلى الله عليه وسلم

# يقـــول:

أ - ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ.. ﴾(١)؟!

### * بين يدى الموضوع:

لانكاد نجد فى القرآن آيات تتحدث عن فترة طفولته - صلى الله عليه وسلم - سوى هذا النزر اليسير.. هذه الآيات الثلاث من سورة الضحى، وآيات أربع أخر من سورة الشرح.

وحتى هذه الآيات الشريفة من سورتى الضحى والشرح لا

---

(١) سورة الضحى من ٦ : ٨

تتحدث صراحة عن مرحلة طفولته.. وإنما تشير إلى بعض ماكان فيها من رعاية الله ـ تبارك وتعالى ـ له، وإيوائه إياه، وهدايته.. ثم شرح صدره ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ والآيات الشريفة تشير إلى هذه المواضيع إشارة خفيفة ضمنية.. مما يجعلنا نلجأ إلى التاريخ والسنة الصحيحة نقلب صفحاتهما، ونستلهمهما حديثا موجزا عن مرحلة: طفولته.. ورضاعته.. وصباه.. صلوات الله وسلامه عليه.

### * اليتيم.. الذى آواه الله:

لم يعرف التاريخ مولودا سُلطت عليه الأضواء الكاشفة منذ أن كان جنينا يستكن فى أحشاء أمه.. مثلما سُلطت على يتيم مكة محمد بن عبد الله الهاشمى القرشى.

لقد وُلد.. والعيون كلها تتطلع إلى بيت أمه آمنة بنت وهب، شريفة بنى زهرة.. لتكتحل بنور إشراقته إبَّان ولادته، والرءوس كلها تشرئب لترى ذلك المولود الذى جمع بين أطراف الشرف كله.. شرف بيت بني عبد مناف وشرف بيت بنى زهرة.. لقد وُلد والألسنة تتساءل عن موعد بزوغ شمسه.. وسطوع نجمه.. وإشراقة نوره..!!

لقد كان الوليد فى جزيرة العرب.. أيا كان نسبه وآباؤه.. يولد فى غفلة من الناس.. لايكاد يعرف بمولده إلا أقاربه الأقربون.. وكان كل مولود غالبا يعيش مغمورا، لا يشار

إليه إلا إذا شب عن الطوق، وارتدى حلة الشباب، وبَرَزَ فى فن الحرب أو الكلام، حينئذ يُسمع عنه ويُقال.

أما يتيم مكة.. محمد - صلى الله عليه وسلم - فقد كان الكون كله فى انتظار إشراقة نوره، وبزوغ كوكبه.. كان الناس وكأنهم على موعد مع ساعة ولادته.. القريب والبعيد منهم.

يروى ابن إسحق بسنده الذى ينتهى إلى حسان بن ثابت - رضى الله عنه - قال: والله إنى لغلام يَفَعَة[1] ابن سبع سنين أو ثمان، أعقل كل ما سمعت، إذ سمعت يهوديا يصرخ بأعلى صوته على أُطمه[2] بيثرب: يا معشر يهود..! حتى إذا اجتمعوا إليه قالوا له: ويلك.. مالك..؟!، قال: طلع الليلة نجم أحمدَ الذى ولد به..!!

أجل..! لقد وُلد - صلى الله عليه وسلم - وهو يُشار إليه بالبنان منذ ساعة ولادته.. ولد معروف النسب.. معروف تاريخ ولادته.. فجر الاثنين، لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول عام الفيل.. الخامس من أغسطس سنة سبعين وخمسمائة من ميلاد المسيح عليه السلام.

واستُرضع - صلى الله عليه وسلم - فى بادية بنى سعد،

---

(١) غلام يفعة: القوى مَن طال قَدُّه.

(٢) الأطم: الحصن.

وأرضعته حليمة ابنة أبى ذؤيب عبد بن الحارث الذى ينتهى نسبه إلى سعد بن بكر بن هوازن.. وأبوه من الرضاعة: الحارث بن عبد العزى ينتهى نسبه أيضا إلى سعد بن بكر بن هوازن.. وإخوته من الرضاعة: عبد الله بن الحارث، وأُنَيْسة بنت الحارث، وخِذَامَةُ بنت الحارث.. وهى الشيماء، غلب ذلك على اسمها فلا تعرف فى قومها إلا به، وقد كانت تحضنه مع أمه إذ كان عندهم(١).

لكن هذا الوليد الذى يشار إليه بالبنان منذ فجر حياته الأولى.. ولد يتيما.. إذ مات أبوه عبد الله وهو مازال جنينا فى بطن أمه، ونورا يستكن فى أحشائها.. فآواه الله تبارك وتعالى، وألقى عليه محبة منه، فلا يراه أحد إلا أحبه ومال قلبه إليه.. وأحاطه ـ سبحانه ـ بعنايته ورعايته.. وظهر ذلك جليا فى ظهور كثير من خوارق العادة فيما وفيمن أحاط به صلوات الله وسلامه عليه.

ونترك أمه.. مرضعته.. حليمة السَّعْدِية تحدثنا عن شئ من هذه الخوارق.. فيما يحكيه عنها ابن هشام فى سيرته.. إذ يقول:

كانت حليمة بنت أبى ذؤيب السعدية أم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ التى أرضعته، تحدث أنها خرجت من بلدها

(١) سيرة ابن هشام جـ١ ص١٧٧.

مع زوجها وابن لها صغير ترضعه، فى نسوة من بنى سعد بن بكر تلتمس الرُّضَعَاءَ.. قالت: وهى فى سنة شهباء(1) لم تُبق لنا شيئا.. فخرجت على أتانٍ لى قمراء(2) معنا شارفٌ(3) لنا ماتبِض(4) بقطرة، وما ننام ليلنا أجمع من صبينا الذى معنا: من بكائه من الجوع، ما فى ثديى ما يغنيه، وما فى شارفنا ما يُغذيه، ولكنا كنا نرجو الغيث والفرج، فخرجت على أتانى تلك، فلق أرَمْتُ(5) بالركب حتى شق ذلك عليهم ضعفا وعجفا، حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء، فما منا امرأة إلا وقد عُرض عليها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فتأباه إذا قيل لها: إنه يتيم..! وذلك أنا إنما كنا نرجو المعروف من أبي الصبي، فكنا نقول: يتيم!! وما عسى أن تصنع أمه وجده..؟؟، فكنا نكرهه لذلك، فما بقيت امرأة قدمت معى إلا أخذت رضيعا غيرى، فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبى: والله إنى لأكره أن أرجع من بين صواحبى ولم آخذ رضيعا، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخُذَنَّهُ، قال : لا عليك أن تفعلى، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة.. قالت: فذهبت إليه فأخذته، وما حملنى على

---

(1) فيها جدب وقحط.

(2) يميل لونها إلى الخضرة..

(3) الناقة المسنة.

(4) لاترشح بنقطة من اللبن...

(5) أى: ألف من معها ضعفها وتأخرها..

أخذه إلا أنى لم أجد غيره، فلما أخذته رجعت به إلى رحْلى، فلما وضعته فى حجرى أقبل عليه ثدياى بما شاء من لبن، فشرب حتى رَوِىَ، وشرب معه أخوه حتى روى، ثم ناما، وماكنا ننام معه قبل ذلك، وقام زوجى إلى شارفنا تلك فإذا إنها لحافل[1]، فحلب منها ماشرب، وشربت معه حتى انتهينا ريًّا وشبعا، فبتنا بخير ليلة.

قالت: يقول صاحبى حين أصبحنا: تَعلَّمِى والله ياحليمة لقد أخذت نسمةً مباركة..! فقلت: والله إنى لأرجو ذلك.. ثم خرجنا وركبت أتانى وحملته عليها معى، فوالله لقطعت بالركب، ما يقدر عليها شئ من حمرهم، حتى إن صواحبى ليقلن لى: يا ابنة أبى ذؤيب.. ويحك..!! اربعى[2] علينا. أليست أتانك التى كنت خرجت عليها..؟، فأقول لهن: بلى.. والله إنها لهى هى، فيقلن: والله إن لها شأناً..!؟

قالت: ثم قدمنا منازلنا من بلاد بنى سعد، وما أعلم أرضا من أرض الله أجدَب منها، فكانت غنمى تروح علىَّ حين قدمنا به معنا شباعا لُبنًا[3]، فنحلب ونشرب، وما يحلب إنسان قَطرة لبن ولا يجدها فى ضَرْع.. حتى كان الحاضرون

(١) ممتلئة الضرع من اللبن.
(٢) انتظرى حتى ندركك.
(٣) غزيرات اللبن.

من قومنا يقولون لرعيانهم: ويلكم..!! اسرحوا حيث يسرح راعى بنت أبى ذؤيب، فتروح أغنامهم جياعا ماتبض بقطرة لبن، وتروح غنمى شباعا لُبَّنًا..! فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه، وفصلته(١)، وكان يشب شبابا لا يشبه الغلمان، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاما جفرا(٢).

لعلك رأيت معى ـ قارئى العزيز ـ أن بركة هذا المولود السعيد النبى المنتظر، قد غيرت حال حليمة وقومها من ضيق فى العيش إلى سعة ورخاء.. وأضفى وجوده بينهم عليهم سعادة وبهجة..! لقد كان حقا: نسمةً مباركة.. تتناثر البركة منها على كل من وما يحيط بها.. فيتحول الحال إلى أحسن وأفضل..!

***

وتموت الأم.. السيدة آمنة.. وعمر نبينا ست سنوات، حين عودتها من زيارة أخواله من بنى عدى بن النجار.. ماتت بين مكة والمدينة.. بالأبواء.. فكفله جده.. لكن الجد يموت وهو ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الثامنة من عمره.

---

(١) فطمته.

(٢) غليظا شديدا.

لقد أصبح يتيما حقا.. بكل ما تعنى كلمة (يتم) من معنى..! فلا أب يعطف ويحنو.. ويهذب ويؤدب ويربى.. ولا أم تعوض برحمتها عطف الأب وحنانه.. ولا جد يحل محل الأب والأم.. وإنما صار يتيم الأب.. يتيم الأم.. يتيم الجد.. لقد فعل الله ـ تبارك وتعالى ـ به ذلك.. ليصنعه على عينه.. ليكلأه بعنايته.. ويحوطه برعايته.. يُروى أن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال: لما توفى والد رسول الله، قالت الملائكة: إلهنا وسيدنا.. بقى نبيك يتيما.. فقال تعالى: « **أنا له حافظ ونصير** »(١).

ولقد آواه رب العالمين جنينا.. وطفلا.. وصبيا.. وشابا.. ورجلا..! وصدق الله العظيم إذ يقول ممتنا عليه بذلك: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴾(٢)..؟!

إن عهد البشرية باليتم.. أنه يكون مصدر تشرد.. وضياع.. وانحراف.. لكن يتيمنا هذا.. صار فيما بعد معلم الإنسانية الأول.. ومربى الشعوب قاطبة.. فمن أدَّبه.. من ربَّاه..؟؟

---

(١) رواه البيهقى.

(٢) سورة الضحى: ٦.

أدبه ورباه من آواه..! رب العزة ـ تبارك وتعالى ـ هو الذى تولى تأديبه.. وتهذيبه.. وتربيته.. حتى صار ـ وهو اليتيم ـ المعلم والمربى، والهادى إلى الصراط المستقيم، يقول ـ صلى الله عليه وسلم ـ: **«أدبني ربي فأحسن تأديبي»**(١).

## * من مظاهر تأديب الله له:

ولعل واحدا يريد أن يسأل قائلا: إذا كان رب العالمين سبحانه هو الذى تولى تأديب حبيبه ومصطفاه من خلقه، إمام أنبيائه وخاتم مرسليه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فما مظاهر هذا التأديب..؟ وما آية تلك التربية..؟؟

الحق.. أن الله ـ تبارك وتعالى ـ أدب حبيبه محمدا تأديبا معنويا.. وتأديبا حسيا، والتأديب المعنوى بعصمته إياه، بهدايته إلى الصراط المستقيم، والسؤال ينصب على التأديب الحسى، وإليك بعض مظاهره:

أ ـ ماروواه ابن سعد، والسهيلى، وما روى فى الصحيح: «من أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين بناء الكعبة كان يحمل الحجارة وإزاره مشدود عليه، فقال له العباس: ياابن أخى،

---

(١) الجامع الصغير جـ١ ص٢١ عن ابن مسعود رضى الله عنه.

لو جعلت إزارك على عاتقك، ففعل، فسقط مغشيا عليه، ثم قال: إزارى . . إزارى. . !! فشد عليه إزاره، وقام يحمل الحجارة»[1].

وفى رواية أوردها السهيلى: «أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما سقط ـ مغشيا عليه ـ ضمه العباس إلى نفسه، وسأله عن شأنه، فأخبره ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه نودى من السماء أن اشدد إزارك يامحمد، وإنه لأول ما نودى».

ويقول ابن إسحق: وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما ذكر لى، يحدث عما كان الله يحفظه به فى صغره، وأمر جاهليته، أنه قال: **«لقد رأيتنى فى غلمان قريش ننقل الحجارة لبعض ما يلعب به الغلمان، كلنا قد تعرى وأخذ إزاره فجعله على رقبته يحمل عليه الحجارة، فإنى لأُقبل معهم كذلك وأدبر إذ لكمنى لاكِمٌ ما أراه لكمة وجيعة، ثم قال: شُدَّ عليك إزارك، قال: فأخذته وشددته علىَّ ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتى، وإزاري علىَّ من بين أصحابى»**.

ها أنت ذا. . ترى معى أن عين الله ـ عز وجل ـ كانت لا تغفل عن حبيبه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى فجر

(١)سيرة ابن هشام، والروض الأنف للسهيلى.

طفولته، وأن يده(١)ـ سبحانه وتعالى ـ كانت تقوِّم اعوجاجه، وتهذب سلوكه فى هذه السن المبكرة.. وأن أسلوب التربية حينئذ كان يتلاءم وطفولته.. وأنه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أُخذ بنوع من الشدة، بلغ معه أن وقع مغشيا عليه.. وهذا يتناسب تماما مع السن المبكرة للطفل..!

فلما تقدمت به السن ـ صلى الله عليه وسلم ـ وشب عن الطوق، وأصبح فتى.. عُومل بأسلوب آخر.. نراه فيما يأتى:

ب ـ ماروى فى الصحيحين عن على ـ كرم الله وجهه ـ أنه قال: سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول: **«ما هممت بشئ مما كان أهل الجاهلية يهمون به إلا ليلتين، كلتاهما عصمني الله ـ عز وجل ـ فيهما، قلت ليلة لبعض فتيان مكة ونحن في رعاء غنم أهلها: ألا تبصر لي غنمي حتي أدخل مكة أسمر فيها كما يسمر الفتيان..؟ فقال: بلي، قال: فدخلت حتي جئت أول دار من دور مكة، سمعت عزفا بالغرابيل والمزامير، فقلت: ما هذا..؟ قالوا: تزوج فلان فلانة، فجلست أنظر، وضرب الله علي أذني،**

---

(١) لا أقصد حقيقة العين واليد، تعالى الله عن الشبيه والمثيل، وعن مشابهة الحوادث.

**فوالله ما أيقظنى إلا مس الشمس، فرجعت إلى صاحبى، فقال: ماذا فعلت..؟ فقلت: مافعلت شيئا..! ثم أخبرته بالذي رأيت، ثم قلت له ليلة أخرى: أبصر لي غنمي حتي أسمر.. ففعل، فدخلت، فلما جئت مكة سمعت مثل الذي سمعته تلك الليلة، فسألت؟ فقيل: نكح فلان فلانة.. فجلست أنظر.. فضرب الله علي أذني فوالله ما أيقظني إلا مس الشمس..!. فرجعت إلي صاحبى، فقال: مافعلت..؟، فقلت: لا شيئ.. ثم أخبرته الخبر..! فوالله ماهممت ولا عدت بعدها لشيئ من ذلك حتى أكرمنى الله ـ عز وجل ـ بنبوته..!!**

ج ـ ماروُى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ عن أم أيمن، قالت: كانت بُوانة صنما تحضره قريش تعظمه، تنسك له النسائك، ويحلقون رءوسهم عنده، ويعكفون عنده يوما إلى الليل، وذلك يوما فى السنة.. وكان أبو طالب يحضره مع قومه، وكان يكلم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يحضر ذلك العيد مع قومه، فيأبى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذلك، حتى رأيت أبا طالب غضب عليه، ورأيت عماته غضبن عليه يومئذ أشد الغضب، وجعلن يقلن: ماتريد يامحمد أن تحضر لقومك عيدا.: ولا تكثر لهم جمعا..!

قالت: فلم يزالوا به حتى ذهب معهم إلى عيدهم.. فغاب عنهم ما شاء الله، ثم رجع إلينا فزعا، فقالت له عماته: مادهاك؟ قال: إنى أخشى أن يكون بى لمم[1]..!، فقلن: ماكان الله ليبتليك بالشيطان وفيك من خصال الخير ما فيك.. فما الذى رأيت..؟

قال: «**إني كلما دنوت من صنم منها تمثل لي رجل أبيض، يصيح بي: وراءك يامحمد.. لا تمسه..!!**»، قالت: فما عاد إلى عيد لهم حتى تنبأ.[2]

تلك نماذج حية ترينا كيف أدبه ربه ـ سبحانه وتعالى ـ، وكيف تولى تربيته وتهذيبه.. حتى كان كما يقول عنه ابن إسحق:

[ فشب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والله تعالى يكلؤه[3] ويحفظه، ويحوطه من أقذار الجاهلية، لما يريد به من كرامته ورسالته.. حتى بلغ أنه كان رجلا أفضل قومه مروءةً، وأحسنَهم خلقا، وأكرمهم حسبا، وأحسنهم جوارًا، وأعظمهم

---

(١) مس من جنون.

(٢) رواه البيهقى.

(٣) يحفظه.

حلما، وأصدقهم حديثا، وأعظمهم أمانة، وأبعدهم من الفُحْش والأخلاق التى تدنس الرجال تنزها وتكرُّما، حتى ما اسمه فى قومه إلا «الأمين» لما جمع الله فيه من الأمور الصالحه[1]] اهـ.

بل صار ـ وهو اليتيم ـ كما قال عنه العزيز الحكيم ـ سبحانه وتعالى ـ فى محكم كتابه. ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[2].

ولاغرو..! فهو يتيم عاش فى كنف أحكم الحاكمين، رب العالمين ـ عز وجل ـ رباه فأحسن تربيته.. وأدبه فأكمل أدبه.. وهذب سلوكه وخلقه حتى أضحى فريدا فى شمائله، وحيدا فى سجاياه..!، وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴾[3] ؟!

أجل..! لقد كان ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يتيم الأبوين.. فلم يضيعه مولاه ـ سبحانه ـ بل جعل له مأوى يأوى إليه عند عمه أبى طالب، فكفله صغيرا، ونصره كبيرا.. وذبَّ عنه رسولا... ولحكمة ما.. ظل عمه على

(١)سيرة ابن هشام جـ ١ ص١٩٩.
(٢) سورة القلم: ٤.
(٣) سورة الضحى: ٦، ٧.

دين قومه حتى تقع هيبته فى نفوسهم، ويحترموه كواحد منهم، ويقدروه كزعيم من زعمائهم.. فلا تمتد أيديهم إلى محمد بسوء أو أذى. فلما مات عمه.. وتجرأ عليه سفهاء مكة وجهالها.. آواه إلى الأنصار من الأوس والخزرج.. فكانوا نعم المأوى، ونعم النصير..!

لقد.. كان - صلى الله عليه وسلم - يعيش فى بيئة موبوءة بكل الرذائل والمفاسد.. فعصمه الله - تعالى.- من رذائل القوم ومفاسدهم.. وهداه إلى الطهر.. والعفاف.. والمُثُل العليا..!

*** الفقير.. الذى أغناه الله:**

إنه.. إمام الأنبياء وخاتم المرسلين، صفوة الله من خلقه.. محمد بن عبد الله - صلوات الله وسلامه عليه - ذاك الذى ولد يتيما، ولم يرث عن أبيه سوى شويهات لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة عدا.. وأَمَةٌ هى أم أيمن - رضى الله عنها -..!

لقد تفتحت عيناه وهو فى أحضان اليتم الحقيقى، والفقر المدقع.. فلا أب يعول وينفق، ولا أم تحنو وتعطى، ولا جد

يعوض سعى الأب وسخاء الأم، فهل ضاع محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يسبح فى بحار اليتم والفقر..؟ ويتعرض لأمواجهما المتلاطمة الباردة..؟؟ كلا.. كلا..!! وكيف يضيع من نشأ فى كنف رب رحيم..؟؟ واجد.. ماجد.. واسع.. كريم..؟؟

لقد هيأ له بيتا يضمه ويأويه.. هو بيت عمه أبى طالب، وصدرا عطوفا حنونا.. هو صدر ذلك العم الذى آثره على أبنائه، وخصه بعطفه.. وحبه.. ورحمته دونهم جميعا، وراح يضفى عليه مالم ينله ولد من والده.

لقد أصبح ذلك العم كَلِفًا به، محبا له، حبا يفوق حبه لكل أبنائه، لا يطيق فراقه، ولا يصبر على بعده عنه.. وهاهوذا يصطحبه فى غدوه ورواحه.. وحله وترحاله.. لقد أضحى صغيرنا اليتيم الفقير يأنس بعمه أنسا لم يأنسه ابن بأبيه، وتقر عينه لقربه منه، وينشرح صدره لاصطحابه إياه..! حتى أصبح ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو فى سنه تلك المبكرة وَلِعًا بهذا القرب، حريصا على أن يرافقه حيثما حل.. وكان ذلك العم الرحيم لا يألو جهدا فى رضا ابن أخيه، ولا يرد له طلبا فى اصطحابه إياه.. حتى ولو كان سفرا بعيد الشقة.. كثير المتاعب.. وليس أدل على ذلك من هذه القصة التى ساقها ابن إسحق كدليل على تعلق الصغير

بعمه، وحرص العم على رضا هذا الصغير الحبيب الأثير لديه.. وهى:

## * قصة بَحِيرَى:

يقول ابن إسحق: إن أبا طالب خرج فى ركب تاجرا إلى الشام، فلما تهيأ للرحيل، وأجمع المسير، صَبَّ (١) به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فرق له، وقال: والله لأخرجن به معى، ولا يفارقنى ولا أفارقه أبدا.. فخرج به معه.

فلما نزل الركب بُصرى من أرض الشام، وبها راهب يقال له: بحيرى فى صومعة له، وكان إليه علم أهل النصرانية، ولم يزل فى تلك الصومعة منذ زمن طويل.. فلما نزلوا ذلك العام ببحيرى، وكانوا كثيرا ما يمرون به قبل ذلك فلا يكلمهم ولا يعرض لهم، حتى كان ذلك العام، فلما نزلوا به قريبا من صومعته صنع لهم طعاما كثيرا، وذلك عن شئ رآه وهو فى صومعته.. إذ يزعمون أنه رأى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو فى صومعته فى الركب حين أقبلوا وغمامة تظلله من بين القوم..!

قال: ثم أقبلوا فنزلوا فى ظل شجرة قريبا منه، فنظر إلى الغمامة حين أظلت الشجرة، وتهصَّرت(٢) أغصان الشجرة

(١) من الصبابة وهى رقة الشوق، أى: اشتد ميله إليه ورق قلبه له.

(٢) أى: مالت وتدلت.

علىٰ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى استظل تحتها.. فلما رأى ذلك بحيرى نزل من صومعته، وقد أمر بذلك الطعام فصنع، ثم أرسل إليهم، فقال: إنى صنعت لكم طعاما يامعشر قريش، فأنا أحب أن تحضروا كلكم صغيركم وكبيركم وعبدكم وحركم.. قال له رجل منهم: والله يابحيرى.. إن لك لشأنا اليوم، ماكنت تصنع هذا بنا، وقد كنا نمر بك كثيرا..!، فما شأنك اليوم..؟ قال له بحيرى: صدقت، قد كان ماتقول، ولكنكم ضيف وقد أحببت أن أكرمكم وأصنع لكم طعاما فتأكلوا منه كلكم، فاجتمعوا إليه، وتخلف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من بين القوم ـ لحداثة سنه ـ فى رحال القوم تحت الشجرة، فلما نظر بحيرى فى القوم ولم ير الصفة التى يعرف ويجد عنده، قال: يا معشر قريش لا يتخلفن أحد منكم عن طعامى، قالوا له: يابحيرى.. ماتخلف عنك أحد ينبغى له أن يأتيك إلا غلاما، وهو أحدث القوم سنا، فتخلف فى رحالهم، فقال: لاتفعلوا.. ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم. فقال رجل من قريش مع القوم: واللات والعزى إن كان للؤم بنا أن يتخلف ابن عبد الله بن عبد المطلب عن طعام من بيننا، ثم قام إليه فاحتضنه، وأجلسه مع القوم..!

فلما رآه بحيرى جعل يلحظه[1] لحظا شديدا، وينظر إلى أشياء من جسده، وقد كان يجدها عنده من صفته، حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا قام إليه بحيرى، فقال له: ياغلام.. أسألك بحق اللات والعزى إلا ما أخبرتنى عما أسألك عنه، وإنما قال له بحيرى ذلك لأنه سمع قومه يحلفون بهما، فزعموا أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: **«لا تسألني باللات والعزي شيئا، فوالله ما أبغضت شيئا قط بغضهما»**، فقال بحيرى: فبالله إلا ما أخبرتنى عما أسألك عنه، فقال له: «سلنى عما بدا لك»، فجعل يسأله عن أشياء من حاله: من نومه.. وهيئته.. وأموره، فجعل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يخبره، فيوافق ذلك ما عند بحيرى من صفته، ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضع صفته التى عنده..!

فلما فرغ أقبل على عمه أبى طالب، فقال له: ما هذا الغلام منك..؟ قال: ابنى، قال له بحيرى: ماهو بابنك، وما ينبغى لهذا الغلام أن يكون أبوه حيا، قال: فإنه ابن أخى.. قال: فما فعل أبوه..؟ قال: مات وأمه حبلى به، قال: صدقت فارجع بابن أخيك إلى بلده، واحذر عليه من يهود، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ماعرفت ليبغُنَّه شرا، فإنه

(١) يدقق النظر فيه.

كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم، فأسرع به إلى بلاده، فخرج به عمه أبو طالب سريعا حتى أقدمه مكة حين فرغ من تجارته بالشام.. ا هـ.

****

### * عود على بدء:

هذه قصة بَحيرى ذكرناها هاهنا ونحن بصدد إقامة الدليل على تعلق الفتى بعمه، وحرص العم على رضا هذا الصغير اليتيم، وعلى أن يرافقه فى سفره وإقامته، فى حِلّه وترحاله.. وإن كان مكانها غير هذا الموضع، فهى ذكرت معترضة بين ثنايا هذا الموضوع: الفقير.. الذى أغناه الله.. وها نحن أولاء نعود إلى موضوعنا، فنقول ـ والله المستعان:

هيأ الله ـ تبارك وتعالى ـ لهذا الصغير ـ اليتيم.. الفقير ـ صلى الله عليه وسلم ـ بيت عمه أبى طالب.. فآواه.. وأوسع له من حبه وسخائه وماله.. فأغناه...!

فلما صار فتى جفرا[1].. عمل فى مهنة الأنبياء قبله.. ألا وهى رعى الغنم.. إذ أنه مامن نبى إلا واشتغل برعى الغنم

---

(١) صبيا قويا.

فى صباه تمهيدا لرعى قطعان البشرية الضالة..! وقيادتها حتى تعود إلى حظيرة الإيمان..!!

فلما بلغ مبلغ الشباب اشتغل بالتجارة.. فأغناه الله تعالى بما حصله من أجر على رعى الغنم.. ثم على العمل بالتجارة، وأبعد عنه بهذا شبح الفقر.. وذل الحاجة..!!

وشاء الله ـ تبارك وتعالى ـ أن يوسع دائرة غناه، فساق إليه تجارة خديجة وملكه زمامها.. فنال ربحا وفيرا، ومالا كثيرا..!!

## * خروجه في تجارة خديجة:

يقول الدكتور هيكل فى كتابه (حياة محمد) ص ١٢٢:

[لما علم أبو طالب أن خديجة ـ صاحبة المال الوفير والتجارة الواسعة ـ تجهز لخروج تجارتها إلى الشام، رأى أن يجد لابن أخيه سببا للرزق أوسع مما يجيئه من أصحاب الغنم التى يرعى، فناداه وكان يومئذ فى الخامسة والعشرين من عمره المديد، وقال له: يا ابن أخى.. أنا رجل لا مال لى وقد اشتد الزمان علينا، وقد بلغنى أن خديجة بنت خويلد استأجرت فلانا ببكرين، ولسنا نرضى لك بمثل ما أعطته، فهل لك أن أكلمها..؟ قال محمد: «ماأحببت»، فخرج أبو

طالبَ إليها، فقال لها: هل لك ياخديجة أن تستأجرى محمدا..؟، فقد بلغنا أنك استأجرت فلانا ببكرين، ولسنا نرضى لمحمد دون أربعة أبكار، فقالت: لو سألت ذلك لبعيد بغيض فعلتها، فكيف وقد سألته لحبيب قريب..؟ وعاد العم إلى ابن أخيه يذكر له الأمر، ويقول له: هذا رزق ساقه الله إليك..!

خرج محمد - عليه السلام - مع ميسرة غلام خديجة، وانطلقت القافلة فى طريق الصحراء إلى الشام مارة بوادى القرى، ومدين، وديار ثمود، وبتلك البقاع التى مر بها محمد مع عمه أبى طالب وهو فى الثامنة عشرة من عمره وأحيت هذه الرحلة فى نفسه ذكريات الرحلة الأولى..] اهـ.

أجل..! لقد كانت تجارة خديجة رزقا ساقه الله إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - فأغناه به من فقر. ووقاه من شر المسغبة(١)، ودرأ به(٢) عنه مذلة الحاجة، وكفل(٣) له حياة كريمة، وعيشة رغدة(٤) هانئة...!

---

(١) الفقر.

(٢) دفع.

(٣) ضمن.

(٤) واسعة.

واستطاع نبي المستقبل بأمانته، وصدقه، ومقدرته أن يتجر بأموال خديجة تجارة أوفر ربحا مما فعل غيره من قبل، فلما آن لهم أن يعودوا ابتاع لخديجة من تجارة الشام كل ما رغبت إليه أن يأتى به.

ولم تخل تلك الرحلة الأولى من مفاجآت.. أذهلت ميسرة.. وجذبته بقوة وعنف إلى «الأمين» فأحبه من كل قلبه.. وكانت تلك المفاجآت المذهلة .. ذلك الخلق العظيم الذى يتحلى به محمد.. وتلك الشمائل العطرة التى امتاز بها عن غيره.. ومنها ما حدث به ابن هشام عن ابن إسحق.. إذ يقول:

### * راهب يخبر ميسرة بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم:

[ فنزل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى ظل شجرة قريبا من صومعة راهب من الرهبان.. فاطَّلع الراهب إلى ميسرة: فقال له: مَن هذا الرجل الذى نزل تحت هذه الشجرة..؟، قال له ميسرة: هذا رجل من قريش من أهل الحرم، قال له الراهب: مانزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبى[1]] اهـ.

(١) ابن هشام جـ١ ص٢٠٤

## * وميسرة يخبر خديجة بسجاياه وشمائله:

لقد أخذ ميسرة بتلك السجايا الحميدة التى لم يرها لبشر ما. وزاد من دهشته ما أخبره به ذلك الراهب.. فازداد ميسرة حبا لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتقديرا له.. وكان ميسرة موصلا جيدا لما رآه وسمعه.. لقد أنبأ سيدته بمحصلة تلك الرحلة.. وانطباعاته عن محمد ذاك الذى فاق التجار فى حكمته النادرة، وفكره الواسع، ورأيه الصائب.. وفاق البشر أجمعين بشمائله الرقيقة، وسجاياه الحميدة، وأخلاقه العظيمة، وسلوكياته القويمة..!

وأُخذت سيدة مكة وشريفتها، وأثرى أثريائها، بما رأت وما سمعت.. لقد رأت محمدا وهو على بعيره يكسوه الجمال والجلال، والهيبة والوقار.. واستمعت إلى عذب حديثه، وحلو كلامه، وحسن تعبيره.. كما استمعت إلى خادمها ميسرة رفيق محمد فى رحلته فسمعت منه كلاما عن محمد يصل إلى حد الخيال.. فأخذت بهذا وذاك.. وودت لو تزوجت هذا الصادق الأمين.. ولِمَ لا..؟ أليس هو سليل المجد والشرف..؟ بلى..!، وهو فوق هذا يتحلى بما لم يتحل به بشر..!!

## * سفارة.. وزواج:

كانت خديجة ـ رضى الله عنها ـ مع ماوهبها الله تعالى

من مال وجمال، وحسب وشرف.. حكيمة حازمة لبيبة.. وسرعان ما استنتجت مما رأت وسمعت أن محمدا على غير مثال، وأنه لابد له من شأن وخطر.. وأن تلك فرصة يجب اقتناصها.. فأرسلت نفيسة بنت علية إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خفية لترغبه فى الزواج منها.. ونترك ابن هشام ليحدثنا عن سفارتها تلك الناجحة.. إذ يقول(١):

روى عن نفيسة بنت علية أنها قالت: أرسلتنى خديجة خفية إلى محمد بعد أن رجع فى عيرها من الشام، فقلت له: يامحمد.. مايمنعك أن تتزوج..؟ فقال: مابيدى ما أتزوج به، قلت: فإن عفيت ذلك، ودعيت إلى المال والجمال والشرف والكفاية ألا تجيب..؟، قال: فمن هى..؟ قلت: خديجة، قال: وكيف لى بذلك..؟ قلت: علىَّ.. وأنا أفعل..!

فذهبت فأخبرتها، فأرسلت إليه ـ عليه السلام ـ أن ائت ساعة كذا وكذا، فأرسلت إلى عمها عمرو بن أسد ليزوجها، فحضر، ودخل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى عمومته(٢).. ولما تم الإيجاب والقبول، أمرت السيدة خديجة

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص٢٠٥

(٢) ذكر ابن هشام اختلاف الرواة فيمن زوجه وزوجها.. ولم أذكر ذلك اختصارا.

بشاة فذبحت، واتخذت طعاما، ودعت عمها عمرا، وبعثت إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأتى ومعه حمزة بن عبد المطلب، وأبو طالب، ورؤساء مضر، فأكلوا، ثم خطب أبو طالب فقال: «الحمد الله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرع إسماعيل، وضئضئ[1] مَعَدّ.. وعنصر مضر.. وجعلنا حضنة بيته وشوكة حرمه.. وجعل لنا بيتا محجوجا.. وحرما آمنا.. وجعلنا الحكام على الناس.. ثم إن ابن أخى هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به رجل إلا رجح، وإن كان فى المال قُل فالمال ظل زائل، وأمر حائل، ومحمد ممن قد عرفتم قرابته، وقد خطب خديجة بنت خويلد، وبذل لها من الصداق ماآجله وعاجله كذا من مالى، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم، وخطر جليل جسيم...!

ولما أتم أبو طالب خطبته تكلم ورقة بن نوفل، فقال: «الحمد الله الذى جعلنا كما ذكرت، وفضلنا على ماعددت، فنحن سادة العرب وقادتها، وأنتم أهل ذلك كله، لاتنكر العشيرة فضلكم، ولا يرد أحد من الناس فخركم وشرفكم.. وقد رغبنا فى الاتصال بحبلكم وشرفكم، فاشهدوا علىَّ معاشر قريش بأنى قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد ابن عبد الله، على أربعمائة دينار.

---

(١) أى: أصل معد.

ثم سكت ورقة، وتكلم أبو طالب، وقال: قد أحببت أن يشركك عمها، فقال عمها: اشهدوا عليَّ يا معشر قريش أنى قد أنكحت محمد بن عبد الله خديجة بنت خويلد، وشهد على ذلك صناديد قريش.. ! اهـ.

***

لقد ساق الله تعالى إلى حبيبه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ رزقا واسعا بزواجه من خديجة بنت خويلد بن أسد ابن عبد العزى بن قصى بن كلاب، وهو الأب الخامس لرسول الله.. إذ هو ـ صلى الله عليه وسلم ـ محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب.. فيجتمع وإياها فى قصي بن كلاب.

أجل..! لقد ساق الله تعالى إلى اليتيم.. الفقير.. محمد... المال والجمال.. والحسب والنسب، فأغناه بذلك غنى واسعا.. أغناه عاطفيا.. وأغناه نفسيا.. وأغناه ماديا.. وصدق الله العظيم.. إذ يقول: ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾(١)

يقول القرطبى فى تفسيره لهذه الآية الشريفة من سورة الضحى: أى فقيرا لا مال لك. «فأغنى» أى: أغناك

---

(١) سورة الضحى: ٨.

بخديـجة ـ رضى الله عنها ـ يقال: عال الرجل يعيل عيلة: إذا افتقر.. وقال مقاتل: فرضاك بما أعطاك من الرزق، وقال الكلبى: قنَّعك بالرزق، وقال ابن عطاء: ووجدك فقير النفس، فأغنى قلبك. اهـ.

ولا مشاحَّة فى أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان فقيرا.. قانعا بما رزقه الله تعالى.. راضيا به كل الرضا.. وفى أن زواجه من خديجة كان سببا مباشرا فى غناه نفسيا وماديا.. إذ أن خديجة ـ رضى الله عنها ـ صارت له ـ صلى الله عليه وسلم ـ الزوجة الوفية المحبة الصادقة فى حبها، المحبوبة حبا لا مزيد عليه.. ثم كانت وزيرة صدق له.. وأول من آمن به.. وصدق دعوته.

لقد واسته بمالها.. وآزرته بحسبها ومكانتها.. وأعانته على تحمل الأمانة.. وتبليغ الرسالة.. ووقفت إلى جواره حتى آخر لحظة فى حياتها..!!

**وعــــن:**

## ٢ ـ شرح صدره.. ورفع ذكره صلى الله عليه وسلم

# يقــــول:

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾(١)

*** إعداده ـ صلى الله عليه وسلم ـ لتحمل الأمانـة الكبرى:**

إن محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ حقا بشر.. لكنه ـ أيضا ـ ليس كسائر البشر..!

لماذا...؟.. لأنه سيُحَمَّل الأمانة الكبرى.. وسوف تُناط به الدعوة العظمى.. وسيكون النبى الخاتم.. صاحب الرسالة الخاتمة.. بل وإمام الأنبياء..!!

(١) سورة الشرح من ١ : ٤.

إذن..! لابد من إعداده إعدادا خاصا، يجعله أهلا لما خلق من أجله.. قادرا على القيام بمهام ماسيكلف به.. صبورا على ما سيلاقى من عنت وصد، وأذى واضطهاد..!!

بلى..! وقد كان.. وإلى جانب هام من ذلك يشبر ربنا - سبحانه وتعالى - فى حديثه القرآنى عن إمام أنبيائه وخاتم مرسليه، ومصطفاه من خلقه، حبيبه محمد - صلى الله عليه وسلم - فيقول ممتنا عليه، ومعددا نعمه وآلاءه:

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ.. ﴾(1)

***

كيف شرح الله صدر حبيبه محمد - صلى الله عليه وسلم..؟ شرح الله - سبحانه وتعالى - صدره بأن جعله واسعا، فسيحا، قادرا على تحمل أعباء الدعوة إليه، صابرا علي مايلاقى من أذى واضطهاد، وصد عن سبيل الله وإعراض عن الإسلام.

شرح - تعالى - صدره بأن ملأه أناة وحلما، ولينا

(1) سورة الشرح من ١ : ٣.

ورحمة.. فكان يقابل الإساءة بالإحسان.. والفظاظة والقسوة بالحلم واللين والرحمة.. كما حدث يوم أن ذهب إلى الطائف ليعرض نفسه ودعوته على قبائلها، فردوه ردا قبيحا، وطردوه شر طردة، وسلطوا عليه العبيد والسفهاء يقذفونه بالحجارة حتى سالت الدماء الزكية الطاهرة من جسده الشريف، وحتى امتلأ نعله بدمه الزكى الطاهر، وجاء جبريل، وملك الجبال، ليقول له ملك الجبال: لو أمرتنى أن أحمل عليهم هذين الأخشبين لفعلت، لكن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يرفع رأسه ويديه إلى ربه ـ سبحانه ـ ويقول: «اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون..»

وفى رواية «اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون».. فيقول جبريل: «صدق من سماك الرءوف الرحيم[1]..!!»

شرح صدره.. بأن ملأه حكمة، وعلما، ونورا.. فوسع هذا الصدر الشريف تكاليف الإسلام كلها.. ووعى آدابه وتعاليمه بل حفظ كلام الله ـ عز وجل ـ وكأنه منقوش على صفحة هذا القلب الطاهر بقلم القدرة الإلهية.. فلم ينس منه كلمة ولم يضيع منه حرفا.. بل وعاه وأداه على خير وجه.

هذا شرح معنوى.. وهناك شرح مادى حسى، وهو شق

(١) الشفاء.. للقاضى عياض.

صدره الشريف.. الذى تكرر عدة مرات، وتحدث عنه النبى الخاتم أكثر من مرة:

### * شق صدره صلي الله عليه وسلم:

وكما كان شرح صدره - صلى الله عليه وسلم - إعدادا له ليستطيع تحمل الأمانة الكبرى، والقيام بالرسالة العظمى. الرسالة الخاتمة.. فقد كان شق صدره الشريف تجهيزا وإعدادا - أيضا - للقيام بهذا الدور العظيم.

وحينما نتصفح حياته الشريفة منذ ولادته إلى بعثته.. ثم إسرائه ومعراجه.. نجد أن عملية شق الصدر تكررت مرارا.. وكانت أحيانا كمقدمة للقيام بعمل خارق عظيم.. وتعالوا لنستعرض بعض هذه الحالات، ونستقيها من مواردها.

أ - حدثت المرة الأولى.. ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما يزال طفلا يلعب مع أترابه وإخوته من الرضاعة فى بادية بنى سعد بن بكر، وقد تجاوزّ سنه العامين بأشهر.. وعنها يتحدث ابن إسحق، فيروى بسنده عن حليمة، إذ تقول:

فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاما جفرا[1].. فقدمنا به على

(١) قويا شديدا.

أمه، ونحن أحرصُ شئ على مكثه فينا، لما كنا نرى من بركته، فكلمنا أمه، وقلت لها: لو تركت بُنَىَّ عندى حتى يغلظ فإنى أخشى عليه وباء مكة، فلم نزل بها حتى ردته معنا، فرجعنا به.. فوالله إنه ـ بعد مقدمنا بأشهر ـ مع أخيه لفى بَهْم(١) لنا خلف بيوتنا، إذ أتانا أخوه يشتد، فقال لى ولأبيه: ذاك أخى القرشى قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه فشقا بطنه، فهما يسوطانه(٢).

قالت: فخرجت أنا وأبوه نحوه، فوجدناه قائما منتقعا(٣) وجهُه، فالتزمته والتزمه أبوه، فقلنا له: مالك يابنى..؟ قال: جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعانى وشقا بطنى، فالتمسا فيه شيئا لا أدرى ماهو..!، فرجعنا إلى خبائنا، وقال لى أبوه: ياحليمة.. لقد خشيت أن يكون هذا الغلام قد أصيب، فألحقيه بأهله قبل أن يظهر ذلك به..!

ويسوق ابن إسحق هذا الحديث برواية أخرى، ينتهى سندها إلى خالد بن معدان الكلابى، أن نفرا من أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قالوا له: يارسول الله

---

(١) الصغار من الغنم، واحدها: بهمة.

(٢) من معانى السوط: خلط الشئ بعضه ببعض، ولعل المعنى هنا: كأنهما يخلطان بعضه ببعض.

(٣) متغيرا.

أخبرنا عن نفسك. .؟ قال: أنا دعوة أبى إبراهيم، وبُشرى أخى عيسى، ورأت أمى حين حملت بى أنه خرج منها نور أضاء لها قصور الشام، واسترضعت فى بنى سعد بن بكر، فبينا أنا مع أخ لى خلف بيوتنا نرعى بهما لنا، إذ أتانى رجلان عليهما ثياب بيض بِطَسْت من ذهب مملوءة ثلجا فأخذانى فشقًّا بطنى، واستخرجا قلبى فشقاه، فاستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها، ثم غسلا قلبى وبطنى بذلك الثلج حتى أنقياه. . ثم قال أحدهما لصاحبه: زنه بعشرة من أمته، فوزننى بهم، فوزنتهم، ثم قال: زنه بمائة من أمته، فوزننى بهم فوزنتهم، ثم قال: زنه بألف من أمته، فوزننى بهم، فوزنتهم، فقال: دعه عنك، فوالله لو وزنته بأمته لوزنها. . !»

ب ـ فلما بلغ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ العاشرة من عمره. تكرر شق صدره الشريف مرة ثانية لاستخراج الغل والحسد وحشوه رأفة ورحمة. . يروى عبد الله ابن الإمام أحمد بسند ينتهى إلى أبى بن كعب، أنه قال: كان أبو هريرة جريئا على أن يسأل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن أشياء لا يسأله عنها غيره، فقال: يارسول الله . . ما أول مارأيت من أمر النبوة. .؟ فاستوى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ جالسا، وقال: «لقد سألت يا أبا هريرة. ! إنى فى الصحراء ابن عشر سنين وأشهر، وإذا بكلام فوق رأسى،

وإذا رجل يقول لرجل: أهو.. هو..؟؟ فاستقبلانى بوجوه لم أرها قط، وأرواح[1] لم أجدها من خلق قط، وثياب لم أرها على أحد قط، فأقبلا إلىَّ يمشيان حتى أخذ كل واحد منهما بعضدى لا أجد لأحدهما مسًّا..!، فقال أحدهما لصاحبه: أضجعه.. فأضجعانى بلا قصر ولا هصر[2]، فقال أحدهما لصاحبه: افلق صدره.. فهوى أحدهما إلى صدرى ففلقه فيما أرى بلا دم ولا وجع، فقال له: أخرج الغل والحسد، فأخرج شيئا كهيئة العلقة، ثم نبذها فطرحها، فقال له: أدخل الرأفة والرحمة، فإذا مثل الذى أخرج شبه الفضة، ثم هز إبهام رجلى اليمنى، فقال: اعد واسلم.. فرجعت بها أعدو رقة على الصغير، ورحمة للكبير».

جـ ـ والمرة الثالثة.. كان شق صدره كمقدمة، وتجهيز وإعداد لرحلتى الإسراء والمعراج.. حتى يتمكن ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ من القيام بهذه الرحلة الخارقة للعادة.. ومن الصعود إلى الملأ الأعلى.. ومن لقاء الملائكة ورؤيتهم بملائكيتهم، ويسمع منهم ويفهم، ويعى ما يشاهد وما يسمع.. يروى الإمام مسلم بسند ينتهى إلى أنس بن مالك ـ

(١) جمع ريح؛ لأن (ريح) قد يجمع على أرواح.. مختار الصحاح.

(٢) أى: لم أشعر بأننى أجبرت على الإضجاع ولم أشعر بأن جسمى انثنى رغما عنى.

رضى الله عنه ـ أن مالك بن صعصعة حدثه، أن نبى الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حدثهم عن ليلة أسرى به، قال: «بينما أنا فى الحطيم مضطجعا إذ أتانى آت فجعل يقول لصاحبه: الأوسط بين الثلاثة(١)، فأتانى فشق ما بين هذه إلى هذه(٢)، فاستخرج قلبى ـ قال: فأتيت بطست من ذهب مملوء إيمانا وحكمة فغسل قلبى، ثم حشى، ثم أعيد.. ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار.. الخ».

د ـ وتكرر الداعى إلى ذلك .. فتكرر شق الصدر.

****

إن شرح صدره.. صلى الله عليه وسلم .. أو شقه.. كان إعدادا وتجهيزا لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليستطيع مع بشريته تحمل أعباء الدعوة الرهيبة.. تلك الأعباء التى تزيد على الجبال ثقلا وضخامة.. وليتمكن من تلك المواقف التى لا طاقة للبشرية بها.. لهذا يمتن عليه ربه ـ عز وجل ـ بهذا القول الكريم:

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾(٣)؟!

(١) كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يرقد بين حمزة وجعفرين أبي طالب..
(٢) يعنى من ثغرة نحره إلى عانته.
(٣) سورة الشرح. ١ ـ ٣.

ب ـ ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾(١)

## * مِن رفع ذكره.. أن قرن سبحانه بين اسمه واسمه

لقد رفع الله ـ تبارك وتعالى ـ ذكر حبيبه محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فقرن اسمه ـ عز وجل ـ باسمه. . فما من أحد فى مشارق الأرض ومغاربها يذكره ـ سبحانه ـ إلا ويذكر اسم محمد معه، وما من مؤذن يعتلى منارة فى أقصي الأرض أو أدناها إلا ويذكر اسم محمد، مقترنا باسم رب العزة:

«أشهد أن لا إله إلا الله. . أشهد أن محمدا رسول الله». بل ما من أحد يصلى فرضا أو نفلا فى أية بقعة من بقاع المعمورة إلا ويذكره ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى تشهده. .! قال مجاهد: لا أذكر إلا ذكرت معي: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله . .!

وقال قتادة: رفع الله ذكره فى الدنيا والآخرة، فليس خطيب ولا متشهد، ولا صاحب صلاة إلا ينادى بها: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله. .!

ويقول القرطبى. . رُوى عن الضحاك عن ابن عباس، أنه

(١) سورة الشرح: ٤

قال: يقول الله له: لا ذكرتُ إلا ذكرتَ معى فى الأذان والإقامة والتشهد، ويوم الجمعة على المنابر، ويوم الفطر، ويوم الأضحى، وأيام التشريق، ويوم عرفة، وعند الجمار، وعلى الصفا والمروة، وفى خطبة النكاح، وفى مشارق الأرض ومغاربها، ولو أن رجلا عبد الله - جل ثناؤه - وصدَّق بالجنة والنار وكل شئ ولم يشهد أن محمدا رسول الله، لم ينتفع بشئ وكان كافرا..!

وروى ابن جرير بسند ينتهى إلى أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: «أتانى جبريل، فقال: إن ربى وربك يقول: كيف رفعتُ ذكرك..؟، فقلت: الله أعلم..! قال: إذا ذُكِرتُ ذُكِرْتَ معى»

وروى ابن أبى حاتم بسند ينتهى إلى ابن عباس - رضى الله عنهما - أن رسول الله - صلي الله عليه وسلم - قال: «سألت ربى مسألة وددت أنى لم أسأله، قلت: قد كان قبلى أنبياء منهم من سخرت له الريح، ومنهم من يحيى الموتى، قال: يامحمد.. ألم أجدك يتيما فآويتك..؟! ألم أرفع لك ذكرك..؟!، قلت: بلى يارب..!!»

وروى أبو نعيم فى دلائل النبوة بسند ينتهى إلى أنس بن مالك - رضى الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: «لما فرغت مما أمرنى به من أمر السموات والأرض، قلت: يارب.. إنه لم يكن نبى قبلي إلا وقد

كرمته: جعلت إبرهيم خليلا.. وموسى كليما.. وسخرت لداود الجبال.. ولسليمان الريح والشياطين.. وأحييت لعيسى الموتى.. فما جعلت لى..؟ قال: أو ليس قد أعطيتك أفضل من ذلك كله..؟ إنى لا أذكر إلا وذكرت معى.. وجعلت صدور أمتك أناجيل يقرأون القرآن ظاهرا، ولم أعطها أمة، وأعطيتك كنزا من كنوز عرشى: لاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم».

ورحم الله حسان بن ثابت ورضى عنه، إذ قال يمدح رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بقصيدته المشهورة، ومنها هذه الأبيات:

أغر عليه للنبوة خاتم
من الله من نور يلوح ويشهد
وضم الإله اسم النبى إلى اسمه
إذا قال فى الخمس المؤذن أشهد
وشق إليه من اسمه ليجله
فذو العرش محمود وهذا محمد

### * ونوّه به فى الكتب السابقة:

ومن رفْع ذكره - صلوات الله وسلامه عليه - أن نوه الله - تعالى - به فى كتب الأولين، وأخذ العهد والميثاق من الأنبياء والمرسلين أن يؤمنوا به وينصروه إن هو ظهر فى حياتهم

وعهدهم.. وذكر اسمه وصفاته فى الكتب المنزلة على رسله وأنبيائه.. فكان الناس قاطبة على علم تام باسمه، وصفاته، ومولده، ومهجره، وكان أشدهم معرفة به ـ صلى الله عليه وسلم ـ الأحبار.. والرهبان.. والكهان..!

أما الأحبار من يهود، والرهبان من النصارى، فقد عرفوه قبل ولادته ومبعثه بقرون عديدة مما وجدوه فى التوراة والإنجيل، وأما الكهان من العرب، فأتتهم به الشياطين من الجن فيما تسترق من السمع، إذ كانت تتسمع وهى لا تحجب عن ذلك بالقذف من النجوم.. وكان الأحبار والرهبان والكهان كثيرا ما يتحدثون عن ذلك النبى أمام العرب من أهل مكة وغيرها.. لكنهم كانوا لا يلقون إلي حديثهم هذا بالا.. إلى أن بعث ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإليك صورا من حديث الأحبار.. والرهبان.. والكهان:

**١ ـ نبوءة شق وسطيح به صلي الله عليه وسلم:**

رأى ملك من ملوك اليمن وهو ربيعة بن نصر رؤيا هالته وفَظِع بها، فطلب تأويلها، فدل على شق بن مصعب بن يشكر، وسطيح ربيع بن ربيعة بن مازن، فأولاها له كل على حدة ومن غير أن يسمع أو يعرف أحدهما ماذا قال الآخر:

وكان من قول سطيح لهذا الملك.. إن مُلْك إرم بن ذى يزن باليمن لن يدوم.. قال له الملك: ومن يقطعه..؟ قال سطيح: نبي زكي.. يأتيه الوحى من قبل العلى..!

قال الملك: ومن هذا النبى..؟ قال: رجل من ولد غالب[1] ابن فهر بن مالك بن النضر، يكون المُلك فى قومه إلى آخر الدهر..!

أما شق.. فكان من قوله بعد أن تنبأ بزوال ملك بيت ذى يزن، حينما سأله الملك قائلا: أفيدوم سلطان بيت ذى يزن أم ينقطع..؟ قال شق: بل ينقطع برسول مُرسل، يأتى بالحق والعدل، بين أهل الدين والفضل، يكون الملك فى قومه إلى يوم الفصل[2]..!!

## ب - وبسببه - صلي الله عليه وسلم - انصرف تبَّع عن يثرب وعمر البيت الحرام وكساه:

كان تبع ملكا من ملوك اليمن، واسمه: تُبَّان أسعد أبو كرب.. أقسم أن يخرب يثرب، ويستأصل أهلها، ويقطع نخلها، لقتلهم ابنًا له غيلة.. فجاءه حَبْران من أحبار يهود بني قريظة، عالمان راسخان فى العلم حين سمعا بما يريد من إهلاك المدينة وأهلها، فقالا له: أيها الملك لا تفعل.. فإنك إن أبيت إلاما تريد حيل بينك وبينها، ولم تأمن عليك عاجل العقوبة..! فقال لهما: ولم ذلك..؟ فقالا: هى مهاجر نبيٍ يخرجِ من هذا الحرم من قريش فى آخر الزمان.. تكون دارَه وقرارَه.

(١) غالب هذا هو الجد العاشر لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

(٢) ابن إسحق بتصرف كبير.

فتناهى عن ذلك.. بل وبنى الكعبة، وكساها الديباج والثياب اليمنية الفاخرة.. وهو أول من كسا البيت.. وأوصى به ولاته من جُرهم[1]..!

### ج ـ وعنه تحدث كاهن جَنْبٍ:

يقول ابن إسحق: كانت جَنْب بطنا من اليمن، وكان لهم كاهن فى الجاهلية. فلما ذُكر أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وانتشر فى العرب قالت له جنب: انظر لنا فى أمر هذا الرجل.. واجتمعوا له فى أسفل جبَله، فنزل عليهم.. ثم قال لهم: أيها الناس.. إن الله أكرم محمدا واصطفاه.. وطهر قلبه وحشاه..!!، ثم اشتد فى جبله راجعا من حيث جاء.

### د ـ وأسلم الكاهن سواد بن قارب:

كان سواد بن قارب هذا كاهنا فى الجاهلية يأتيه تابع من الجن، فحدثه عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حديثا واضحا صريحا، فركب ناقته وأقبل على رسول الله بالمدينة وأعلن إسلامه..

يروى ابن هشام فى سيرته مارواه محمد بن كعب القرظى، إذ قال: بينا عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ ذات يوم جالس إذ مرَّ به رجل، فقيل: ياأمير المؤمنين..

---

(١) ابن إسحق، بتصرف كبير.

أتعرف هذا المارّ . . ؟ قال: ومن هذا . . ؟ قالوا: هذا سواد بن قارب الذى أتاه رِئيه - أى: تابعه من الجن - الذى يرى له، أتاه بظهور النبى - صلى الله عليه وسلم - .

فقال عمر لسواد: أأنت على ما كنت عليه من كهانتك . . ؟؟ فغضب، وقال: ما استقبلنى بهذا أحد منذ أسلمت ياأمير المؤمنين . . فقال عمر له: سبحان الله . . !! ماكنا عليه من الشرك أعظم مما كنت عليه من كهانتك، فأخبرنى ما نبأ رئيك بظهور رسول الله - صلى الله عليه وسلم . . ؟؟

قال: نعم ياأمير المؤمنين . . بينما أنا ذات ليلة بين النائم واليقظان إذ أتانى رئِّيى فضربنى برجله، وقال: قم ياسواد بن قارب، واسمع مقالتى واعقل إن كنت تعقل . . إنه بعث رسول من لؤى بن غالب . . يدعو إلى الله - عز وجل - وإلى عبادته، ثم أنشد يقول:

عجبت للجن وتَطلاَبها
وشدّهاَ الْعِيسَ بأقتابها
تهوي إلى مكة تبغى الهدى
ماصادق الجن كَكَذّابِهاَ . . !
فادخل إلى الصفوة من هاشم
ليس قداماها كأذنابها

فقلت : دعنى أنام، فإنى أمسيت ناعسا، فلما كانت الليلة الثانية والثالثة، جاءنى، فقال لى فيهما: إنه بعث رسول من لؤى بن غالب يدعو إلى الله - عز وجل - وإلى عبادته.. وكان كل مرة ينشد[1] شعرا.. فقمت فقلت: قد امتحن الله قلبى، فرحلت ناقتى، ثم أتيت المدينة، فإذا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه حوله، فلما رآنى، قال: مرحبا يا سواد بن قارب، قد علمنا ما جاء بك، فقلت: يارسول الله.. قد قلت شعرا، فاسمع مقالتى يارسول الله .. فقال: هات.. فأنشأ يقول:

أتاني رئيي بعد هدءٍ ورقدةٍ
ولم يك فيما قد بلوت بكاذب
ثلاث ليالٍ قوله كل ليلة
أتاك رسولٌ من لؤى بن غالب
فشمَّرت عن ساقى الإزار ووسّطتْ
بى الذِّعْلِبُ الوضاء بين السباسب[2]
فأشهد أن الله لارب غيره
وأنك مأمون على كل غائب
وأنك أدنى المرسلين وسيلة
إلى الله يا بن الأكرمين الأطايب

(١) لم أذكر شعر الرئى خشية الإطالة
(٢) الذعلب: الناقة السريعة والسباسب جمع سَبْسَبْ وهي: المفازة..

فمرنا بما يأتيك ياخير مرسل
وإن كان فيما جاء شيبُ الذوائب(١)
وكن لى شفيعا يوم لا ذو شفاعة
سواك بِمُغْنٍ عن سواد بن قارب

قال: ففرح النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو وأصحابه بمقالتى فرحا شديدا حتى رؤى الفرح فى وجوههم، وضحك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى بدت نواجذه، وقال: «أفلحت ياسواد»، فرأيت عمر ـ رضى الله عنه ـ التزمه، وقال: كنت أشتهى أن أسمع هذا الحديث منك، فهل يأتيك رئيك اليوم؟ قال: أما منذ قرأت القرآن فلا.. ونعم العوض كتاب الله عز وجل..!!.اهـ

***

هكذا.. رفع الله ـ تبارك وتعالى ـ ذكر حبيبه محمد فى الأولين وفى الآخرين.. وصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾(٢).

---

(١) الذوائب: جمع ذؤابة، وهى: من كل شئ أعلاه، والمقصود بها هنا: شعر مقدم الرأس

(٢) سورة الشرح: ٤

# الباب الثالث

## بعثته ـ صلى الله عليه وسلم ـ
## ومابعدها

* بدء الوحي.
* بعثته ـ صلى الله عليه وسلم ـ وجهره بالدعوة.
* أذى قومه له.. ودفاع القرآن عنه.. وتثبيت فؤاده.

**عـــــن:**

## ١ ـ أول مابُدئ به من أمر النبوة صلى الله عليه وسلم

## يقــــول:

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾(١)

إن أول ما بدئ به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أمر النبوة، حين أراد الله ـ تبارك وتعالى ـ كرامته، ورحمة البشرية الضالة به. . عدة أمور:

**الأول:** الرؤيا الصادقة. . فكان ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لا يرى رؤيا فى نومه إلا جاءت كفلق الصبح. . أى: رأى تأويلها فى يقظته بكل الوضوح الذى رآها به فى نومه.

**ثانيا:** حبب الله ـ تعالى ـ إليه الخلوة، فلم يكن شئ

(١) سورة العلق من ١ :٥.

أحبَّ إليه من أن يخلو وحده.. تارة فى بيته وأحيانا فى البيت الحرام.. وأحايين كثيرة فى غار حراء..!

**ثالثا:** ما يرويه ابن إسحق بقوله: حدثنى عبد الملك بن عبيد الله بن أبى سفيان بن العلاء بن جارية الثقفى، وكان واعيةً[1]، عن بعض أهل العلم.. أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين أراده الله بكرامته، وابتدأه بالنبوة، كان إذا خرج لحاجته أبعدَ حتى تحسر[2] عنه البيوت، ويُفضى إلى شعاب[3] مكة وبطون أوديتها.. فلا يمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بحجر.. ولا شجر.. إلا قال: السلام عليك يارسول الله..!

قال: فيلتفت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حوله وعن يمينه وعن شماله وخلفه فلا يرى إلا الشجر والحجارة.. فمكث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كذلك يرى ويسمع، ما شاء الله أن يمكث، ثم جاءه جبريل بما جاءه من كرامة الله وهو بحراء فى شهر رمضان.

وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ يجاور[4] ذلك الشهر من كل سنة يطعم من جاءه من المساكين...!

(١) حافظا.

(٢) تبعد عنه.

(٣) المواضع الخفية بين الجبال.

(٤) يعتكف للتفكر والعبادة.

### * كيف نبئ.. صلى الله عليه وسلم..؟؟

كان محمد.. نبى هذه الأمة المنتظر ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبل أن يبعث، بتوفيق من الله ـ سبحانه وتعالى ـ وإلهام منه. إذا أقبل شهر رمضان.. يترك مكة وما فيها من ظلم وضلال.. وجور وفساد.. ويذهب بعيدا عن أهلها وكفرهم وشركهم.. يذهب بعيدا لينشد النور.. ويبحث عن الحقيقة..!

وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ يدخل غار حراء.. فى قمة جبل النور على يسار المتجه إلى منى.. ويختلى فيه الليالى الطوال.. فيجد فى وحشته أنسا.. وفى ظلامه نورا.. وفى ضيقه سعة ورحابة.. ومن بين أرجاء هذا الغار.. يقلب بصره فى ملكوت السموات والأرض.. ويعمل عقله وفكره متدبرا فى آيات هذا الوجود.. فيرى ببصيرته أسرار وآثار قدرة موجد هذا الوجود..!!

وبينما رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى خلوته تلك.. وقد انصرم من شهر رمضان المبارك سنة أربعين من عام الفيل جُلُّه.. إذ به يرى كأن سقف الغار قد رفع.. ونزل ملكٌ كريم من السماء.. يحمل كتابا كريما.. ملفوفا فى ديباجة خضراء من حرير الجنة..!

لقد جاءه الملك ـ إذن ـ بالنور الذى يبتغيه. . والحقيقة التى ينشدها. . والخير الذى يحرص عليه ويطلبه. . والهداية التى طالما بحث ونقب عنها. . !!

ويتقدم الملك منه ـ صلى الله وعليه وسلم ـ ويغته[1] بنمط من الديباج حتى يظن النبى المنتظر أنه الموت. . ثم يرسله. . ويقول له: اقرأ يامحمد. . ويتعجب محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ مما حدث له، ويقول معتذرا: «ما أنا بقارئ». أو مستفهما: ماأقرأ. .؟!، ويفعل به الملك مثلما فعل مرة ثانية وثالثة[2]، ثم يقول له:

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[3].

وتنقش هذه الآيات الكريمة بيد القدرة الإلهية، على قلب محمد الأمى. . الذى لم يجلس يوما إلى معلم ويتعلم منه حرفا واحدا. . ولم يقبض مرة على قلم ويخط به خطا واحدا. . !

وكانت هذه الآيات الكريمة. . أول تيارات الوحى. . التى نبأ الله ـ تعالى ـ بها يتيم مكة. . محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمى القرشى العربى . . مصطفاه من خلقه. .

---

(١) يعصره عصرا شديدا
(٢) سيرة ابن كثير وابن هشام.
(٣) سورة الفلق من ١ : ٥.

وخيرته من عباده.. وهديته إلى البشرية جمعاء.. صلوات الله وسلامه عليه.

وبعد حين من الوقت.. بعد أن هدأ محمد بعض الشئ.. خرج من الغار.. وياللعجب..!! .. لقد دخل الغار بشرا حائرا.. ينشد النور.. ويبحث عن الحقيقة.. وهاهو ذا يخرج من غاره نبيا مرسلا.. حُمل الأمانة الكبرى.. ونيطت به الدعوة العظمى..!! ويحدثنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد أن خرج من الغار، فيقول: «خرجت من الغار.. حتى إذا كنت فى وسط من الجبل سمعت صوتا من السماء.. يقول: يا محمد.. أنت رسول الله وأنا جبريل..! فوقفت. فرفعت رأسى إلى السماء أنظر. فإذا جبريل فى صورة رجل صافّ قدميه فى أفق السماء، يقول: يامحمد.. أنت رسوّل الله، وأنا جبريل..!، فوقفت أنظر إليه، فما أتقدم وما أتأخر، وجعلت أصرف وجهى عنه فى آفاق السماء، فلا أنظر فى ناحية فيها إلا رأيته كذلك، فما زلت واقفا ما أتقدم أمامى، وما أرجع ورائى، حتى بعثت خديجة رسلها فى طلبى، فبلغوا أعلى مكة ورجعوا إليها، وأنا واقف فى مكانى ذلك.. ثم انصرف عنى، وانصرفت راجعا إلى أهلى حتى أتيت خديجة، فقالت: يا أبا القاسم أين كنت..؟ فو الله لقد بعثت رسلى فى طلبك حتى بلغوا أعلى مكة ورجعوا إلىَّ..؟!

يقول ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «فحدثتها بالذى رأيت، فقالت: أبشر يا ابن عم، واثبت، فوالذى نفس خديجة بيده.. إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة»(١).

يروى البخارى بسند ينتهى إلى أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ أنها قالت: «أول ما بدئ به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح.. ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو فى غار حراء فيتحنث(٢) فيه الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق، وهو فى غار حراء، فجاءه الملك، فقال: اقرأ..! قال: ما أنا بقارئ..! قال: فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلنى، فقال: اقرأ.. فقلت: ما أنا بقارئ..! فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلنى، فقال: اقرأ.. فقلت: ما أنا بقارئ..! فأخذنى فغطنى الثالثة ثم أرسلنى، فقال:

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾.

---

(١) ابن إسحق، والبخارى عن جابربن عبد الله ـ رضى الله عنهما ـ بتصرف.

(٢) يتعبد.

(٣) سورة العلق: ١ ـ ٥.

فرجع بها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد ـ رضى الله عنها ـ فقال: زملونى[1].. زملونى.. فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة، وأخبرها الخبر، ثم قال: لقد خشيت على نفسى..!، فقالت خديجة: كلا.. والله ما يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل[2] وتكسب المعدوم[3]، وتقرى[4] الضيف، وتعين على نوائب الحق.

ثم قامت فجمعت عليها ثيابها، ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصى، وهو ابن عمها، وكان ورقة قد تنصر، وقرأ الكتب، وسمع من أهل التوراة والإنجيل.. فأخبرته بما أخبرها به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه رأى وسمع، فقال ورقة بن نوفل: قدُّوس قدُّوس.. والذى نفس ورقة بيده، لئن كنت صدقتينى ياخديجة.. فقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى، وإنه لنبى هذه الأمة.. فقولى له فليثبت..!

فرجعت خديجة إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

---

(١) غطونى.. غطونى.

(٢) الكَلُّ: الفقير ذو العيال، أو اليتيم.

(٣) الفقير.

(٤) تقدم له ما يسد حاجته.

فأخبرته.. فلما قضى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ جواره، وانصرف، صنع كما كان يصنع: بدأ بالكعبة فطاف بها، فلقيه ورقة بن نوفل وهو يطوف بالكعبة، فقال: ياابن أخي.. أخبرني بما رأيت وسمعت..؟ فأخبره رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال له ورقة: والذى نفسى بيده إنك لنبى هذه الأمة.. ولقد جاءك الناموس[1] الأكبر الذى جاء موسى، ولَتُكَذَّبنَّه، ولتُؤْذينَّه، ولتُخرجَنَّه، ولتُقاتلنَّه[2]، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصرا يعلمه، ثم أدنى رأسه منه فقبل يافوخه ـ أي: وسط رأسه ـ ثم انصرف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى منزله[3]..!!»

### كيف كان يتنزل القرآن على رسول الله..!؟

كان لنزول الوحى على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقع شديد على جسده الشريف، حتى إن العرق ليقطر من جبينه فى اليوم الشديد البرد.. وتصف أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ حالته ـ صلى الله عليه وسلم ـ

---

(١) أصل الناموس: هو صاحب السر فى الخير والشر، فعبر عن جبريل بذلك.

(٢) هذه الأفعال الأربعة مبينة للمجول.

(٣) ابن إسحق ـ والبخارى.

وقت نزول الوحى عليه، فتقول: «لقد رأيته ينزل عليه فى اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه، وإن جبينه ليتفصَّدُ عرقا»(١).

وكان لنزول الوحى على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ طريقتان:

١ ـ أن يأتيه مثل صلصلة الجرس،فيفصم عنه، وقد وعى ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ ما قال.

٢ ـ أن يتمثل له الملك رجلا فيكلمه فيعى ما يقول، يروى البخارى عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أن الحارث بن هشام ـ رضى الله عنه ـ سأل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: يارسول الله.. كيف يأتيك الوحى..؟!، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: **«أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علىّ، فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى ما يقول»**.

(١) رواه البخارى.

وعــــن:

## ٢ ـ بعثته وإرساله.. صلى الله عليه وسلم

# يقـــول:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴾(١)

جمهور العلماء والمفسرين على أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نبئ بـ ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ أى أنها كانت أول مانزلت عليه.. وصار بها نبيا.. ثم فتر الوحى بعض الوقت، فحزن لذلك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حزنا شديدا، وشق ذلك عليه، وتألم له، وكان من شدة شوقه إلى الوحى يخرج هائما على وجهه فى الجبال..

---

(١) سورة المدثر من ١ ـ ٧.

وحتى هان عليه أن يتردى من جبل. . فرأى جبريل على سرير بين السماء والأرض كالنور المتلألئ، ففزع ووقع مغشيا عليه، فلما أفاق دخل على خديجة ودعا بماء فصبه عليه، وقال: دثرونى. . دثرونى. . فدثروه[1] بقطيفة. . فجاءه جبريل بهذه الآيات من أول سورة المدثر[2].

روى الإمام مسلم فى صحيحه بسند ينتهى إلى جابر بن عبد الله ـ رضى الله عنهما ـ أنه قال: سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحدث عن فترة الوحى، فقال فى حديثه: فبينا أنا أمشى إذ سمعت صوتا من السماء، فرفعت بصرى قبل السماء، فإذا الملك الذى جاءنى بحراء قاعد على كرسى بين السماء والأرض، فجئثت[3] منه حتى هويت إلى الأرض، فجئت إلى أهلى، فقلت: زملونى[4]. . زملونى، فزملونى، فأنزل الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴾ إلى ﴿ فَٱهْجُرْ ﴾.

يقول الإمام القرطبى: وقيل: بلغه من المشركين سوء قول فيه، فاشتد عليه فتزمل فى ثيابه وتدثر، فنزلت ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴾ و ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴾، وقيل: كان هذا فى ابتداء ما

(١) غطونى. . فغطوه بقطيفة.
(٢) الشوكانى فى فتح القدير.
(٣) فزعت.
(٤) زملونى: غطونى.

أوحى إليه، فإنه لما سمع قول الملك، ونظر إليه أخذته الرعدة، فأتى أهله، فقال: «زملونى دثرونى»، ثم قال: روى معناه عن ابن عباس.

ويقول ابن القيم: أول ما أوحى إليه ربه: أن يقرأ باسم ربه الذى خلق، وذلك أول نبوته ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأمره أن يقرأ فى نفسه، ولم يأمره بالتبليغ، ثم أنزل الله عليه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ فنبأه «باقرأ»، وأرسله «بيا أيها المدثر»، ثم أمره أن ينذر عشيرته الأقربين ثم قومه، فالعرب، فالناس أجمعين.

ونستطيع أن نخرج من هذه الآراء كلها بما يأتى:

**أولا:** نبئ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ «باقرأ».. أى: صار نبيا بنزول هذه الآيات الكريمة من أول سورة العلق عليه.. يؤمر بتبليغ شئ إلى الناس، سواء الأقربون منه أوالأبعدون عنه.. إنما أمر بأن يقرأ فى حد ذاته من غير تبليغ إلى الغير.

**ثانيا:** ولأن الرسالة عبء ثقيل دونه ثقل الجبال الشم، ومواجهة قوم ألفت نفوسهم وقلوبهم عبادة أصنام متعددة متنوعة، قرونا طويلة، بدعوة التوحيد.. أمر من الصعوبة بمكان.. ولأن كلا الأمرين أشد وطئا على الجسم والنفس

معا . . اقتضى ذلك كله أن يُعد النبى لتحمل أعباء الرسالة، ومواجهة قومه بدعوته إعدادا نفسيا . . وتمثل هذا الإعداد فى أول الأمر بقيام الليل إلا قليلا وبترتيل ما ينزل عليه من تيارات ذلك الوحى بتفكر وتدبر وإمعان، فنزل عليه قوله ـ تعالى ـ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ﴾(1).

**ثالثا:** أمر بتبليغ رسالته إلى قومه . . فنزل عليه قول الحق ـ عز وجل ـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ﴾ . . فأُرسل بهذه الآيات الشريفة من أول سورة المدثر.

**رابعا:** لقد كان لأولى تيارات الوحى، ورؤية الملك أول الأمر وقع شديد على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لهذا نراه يذهب إلى أهله فزعا، مضطربا، خائفا، يرتعد جسمه وكأنه أصيب بحمًى شديدة . . ويطلب من أهله أن يزملوه . . ويدثروه . . وينزل الملك، ويخاطبه بقول الحق ـ سبحانه وتعالى:ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ﴾ . . ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ﴾

---

(1) سورة المزمل من ١ : ٦.

.. وفى هذا الخطاب ملاطفة من الله ـ سبحانه وتعالى ـ لحبيبه ونبيه ومصطفاه من خلقه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذ ناداه بحاله، وعبَّر عنه بصفته، ولم يقل: يامحمد مثلا، ليستشعر اللين والملاطفة من ربه عز وجل..!

وقد كان من عادة العرب إذا أرادوا ملاطفة شخص نادوه بحالته، وبصفته التى هو عليها، كقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعلى حينما خرج مغاضبا لفاطمة ونام فى المسجد على التراب فأصاب التراب ثيابه وجسمه: **«قم يا أبا تراب»**.. وقوله أيضا لحذيفة ليلة الخندق: **«قم يانومان»**.

فرب العالمين ـ سبحانه ـ يلاطف حبيبه محمدا بهذا النداء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴾.. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴾.. فلما أنس بجبريل.. وتعود على تلقى الوحى كان النداء بالنبوة والرسالة..!

يقول الأخفش: «المزمل» أصله: المتزمل فأدغمت التاء فى الزاى، وكذلك «المدثر» أصله: المتدثر، فأدغمت التاء فى الدال تخفيفا.. اهـ.

وأبى بن كعب يقرأ على الأصل فى الكلمتين: «يا أيها المتزمل».. «يا أيها المتدثر».

والكلمتان الشريفتان بمعنى واحد، يقال: تزمَّل وتدثَّر بثوبه

إذا تغطى، وزمَّل غيرَه إذا غطاه، وكل شئ لُفِّف فقد زُمِّل ودُثِّر(١).

ومعنى الآيات من سورة المدثر: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴾: ياأيها الذى قد تدثر بثيابه، أى: تغشى بها. ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾: انهض فخوف أهل مكة وحذرهم العذاب إن لم يسلموا. ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ أى: واختص سيدك ومالكك ومصلح أمورك بالتكبير، وهو وصفه ـ سبحانه وتعالى ـ بالكبرياء والعظمة، وأنه أكبر من أن يكون له شريك. ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ أمره الله ـ تعالى ـ بتطهير ثيابه وحفظها عن النجاسات، وقال قتادة: نفسك فطهرها من الذنب. ﴿ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴾ أى: اترك الأصنام والأوثان فلا تعبدها؛ لأنها لاتستحق العبادة، وعبادتها سبب العذاب والهلاك. ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ لا تمنن على ربك بما تتحمله من أعباء النبوة، وقيل: إذا أعطيت أحدا عطية فأعطها لوجه الله ولا تمن بعطيتك على الناس. ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴾. أى: لقد حملت أمرا عظيما.. ستحاربك العرب عليه والعجم.. فاصبر عليه، وابتغ بصبرك وجه الله تعالى(٢).

---

(١) تفسير القرطبى.

(٢) فتح القدير للشوكانى بتصرف.

هذا.. ومما تجدر الإشارة إليه: أن المزمل والمدثر ليسا من أسمائه - صلى الله عليه وسلم - ولم يعرف بهما، خلافا لما ذهب إليه البعض، وعدهما من أسمائه الشريفة[1].

---

(١) الروض الأنف للسهيلي.

وعـــن:

## ٣ ـ عظيم مكانته ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند ربه ـ عز وجل ـ

## يقـــول:

﴿ وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣
وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ
فَتَرْضَىٰ ﴾(١)

فتر الوحى عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأبطأ عليه الملك أياما، فجزع لذلك جزعا عظيما، وحزن من أجله حزنا شديدا، ووصل نبأ إبطاء الوحى وتأخره إلى المشركين، لاسيما الأقربون منهم له، فقالوا: ما نرى إلا أن رب محمد قد قلاه.. فأنزل الله ـ تبارك وتعالى ـ هذه الآيات من سورة الضحى..

(١) سورة الضحى من ١ : ٥.

والآيات الشريفة تكشف فى جلاء ووضوح عن مكانة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عند رب العزة - تبارك وتعالى - تلك المكانة التى لا تدانيها مكانة أحد من الخلق.. ثم تزف إليه بشرى أُثلج لها صدره، وانشرح بها فؤاده، وفرح لها قلبه..!

لقد أقسم - سبحانه وتعالى - بالضحى، وهو شباب النهار، إذ فيه تعلو الشمس فى كبد السماء وترتفع، فيشتد ضوءها، ويعظم نورها، فتنير الأفق، وتكسو وجه الأرض بغلالة من النور والضياء.. وكذلك الإسلام الذى جاء به إمام الأنبياء وخاتم المرسلين محمد - صلى الله عليه وسلم - بالنسبة للحياة، فتعاليمه تعلو فى سماء الفضيلة، وترتفع فى أفق الهداية، فتنشر على العالم بأسره الخير.. والعدل.. والرحمة، وتنير أفق الحياة بما تحمل من نور العلم والمعرفة.

ثم يقسم - سبحانه وتعالى - «بالليل إذا سجى» أى: سكن بخلود الناس فيه إلى الراحة، والنوم، والهدوء.. فتقل الحركة فيه إلى أبعد حد، وربما تنعدم فى بعض أجزائه.. فيبدو الكون هادئا، ساكنا.. وكما أن شمس الضحى يماثلها نور الإسلام ومافيه من علم ومعرفة.. فإن ظلام الليل يماثله ظلمة الكفر والشرك، وما فيه من عمى وجهالة وضلالة..!

والضحى والليل ظاهرتان كونيتان.. تدلان دلالة واضحة

على عظيم قدرة خالق هذا الكون ومصرف شأنه، ومدبر أمره.. وإتيانهما هكذا بانتظام لم يختل مرة واحدة منذ أن كانت الدنيا وإلى يوم الناس هذا فيه دلالة جلية على وحدانية ووجود هذا الخالق العظيم سبحانه وتعالى..!

علام يقسم - سبحانه وتعالى - بهاتين الظاهرتين الكونيتين..؟ يقسم على مضمون قوله - عز وجل - ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾..!(١)

وكلمة «ودعك» تقرأ بتشديد الدال مع الفتح، ومعناها على هذه القراءة - والله تعالى أعلم بمراده - ما قطعك ربك يامحمد قطع مودِّع لك.. وتقرأ بتخفيفها، والمعنى: ما تركك يا محمد ﴿ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ وما أبغضك منذ أحبك..!!

### * وبشرى تثلج صدره - صلى الله عليه وسلم :

بعد أن كشف - سبحانه وتعالى - عن مكانته - صلى الله عليه وسلم - العظيمة عنده.. زف إليه بشرى أثلجت صدره، وانشرح لها فؤاده، واطمأن قلبه.. إذ قال - سبحانه وتعالى - مخاطبا إياه:

﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾(٢).

---

(١) سورة الضحى: ٣
(٢) سورة الضحى: ٤, ٥

يقول ابن إسحق: أى: ما عندى فى مرجعك إلىَّ يامحمد.. خير لك مما عجلت لك من الكرامة فى الدنيا.

ويروى القرطبى حديثا عن على، أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: **«يشفعنى الله فى أمتى حتى يقول ـ سبحانه ـ لى: رضيت يا محمد..؟؟ فأقول: يارب رضيت..!»** ثم يقول: وفى الحديث.. لما نزلت هذه الآية: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ: **«إذا والله لا أرضى وواحد من أمتى فى النار..!»**

يروى مسلم بسند ينتهى إلى عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضى الله عنهما ـ أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ تلا قول الله ـ عز وجل ـ فى إبراهيم:

﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(١)

وقول عيسى ـ عليه السلام ـ:

﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾(٢)

---

(١) سورة إبراهيم: ٣٦

(٢) سورة المائدة: ١١٨.

فرفع يديه وقال: «اللهم أمتى أمتى» ويكى، فقال الله ـ عز وجل ـ: «ياجبريل.. اذهب إلى محمد ـ وربك أعلم ـ فسله مايبكيك..؟؟»، فأتاه جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ فسأله، فأخبره رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما قال ـ وهو سبحانه أعلم ـ فقال الله: «ياجبريل.. اذهب إلى محمد، فقل: إنا سنرضيك فى أمتك ولا نسوءك..!».

إن الله ـ تبارك وتعالى ـ يبشر حبيبه محمدا.. بأن آخر أمره سيكون أحسن وأفضل من أوله، إذ سيقوى ساعده، وتظهر دعوته، وينصره ـ سبحانه ـ على أعدائه ... وبأنه سيعطيه فى الدار الآخرة من الشفاعة حتى يرضيه فى أمته، ومما أعده له من الكرامة، والمقام المحمود حتى يرضيه فى نفسه..!

لهذا.. كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ أزهد الناس فى الدنيا.. يروى الإمام أحمد عن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ أنه قال: اضطجع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على حصير فأثر فى جنبه، فلما استيقظ جعلت أمسح جنبه، وقلت: يارسول الله.. ألا آذنتنا حتى نبسط لك على الحصير شيئا؟ فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم: «مالى وللدنيا! إنما مثلى ومثل الدنيا كراكب ظل تحت شجرة ثم راح وتركها..!»

وعـــن:

## ٤ ـ الجهر بدعوته ـ صلى الله عليه وسلم :

# يقـــول:

أ ـ ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾(١)

ب ـ ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ٢١٤ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢١٥ فَإِنۡ عَصَوۡكَ فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾(٢)

من يوم أن نزل عليه قوله ـ تعالى ـ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ﴾(٣) وهو ـ صلى الله عليه وسلم ـ يدعو سرا إلى عبادة الله ـ تعالى ـ وحده، وترك عبادة ما سواه من أصنام وأوثان، وظل كذلك ثلاث سنوات. . . انتشر الدين الحنيف فى أثنائها بين أصدقائه، ومحبيه، وأهله الأقربين.

---

(١) سورة الحجر: ٩٤.
(٢) سورة الشعراء من ٢١٤ ـ٢١٦.
(٣) سورة المدثر: ١، ٢

فأسلمت زوجه خديجة، ثم على بن أبى طالب ابن عمه، ثم خادمه ومولاه زيد ين حارثة، وكان ـ رضى الله عنه ـ أول ذكر أسلم وصلى بعد على بن أبى طالب.. ثم صاحبه وصديقه أبو بكر بن أبى قحافة ـ رضوان الله تعالى عليهم أجمعين..

وهؤلاء هم سابقو السابقين إلى الإسلام.. وكما ترى: زوجه.. وابن عمه.. ومولاه.. وصديقه الحميم.. وعندى: أن إسلام هؤلاء الأربعة أوضح دليل على صدق دعواه ـ صلوات الله وسلامه عليه.. لماذا..؟ لأن المرء يستطيع أن يقنع من هو بعيد عنه بسجية ما حينما يتظاهر ببعض مظاهرها أمامه.. أما المخالطون له، المحيطون به، الذين يعاشرونه معاشرة دائمة، فإنهم لن يقتنعوا من المرء إلا بما كان من سجاياه الحقيقية التى طبع عليها، وصارت كغريزة من غرائزه، وصفة متأصلة فيه.

وهؤلاء الأربعة.. كانوا أشد الناس خلطة به، وأكثرهم معرفة بأحواله ظاهرها وباطنها، وأوثقهم من سجاياه وأخلاقه وسلوكياته.. وبما أنهم كانوا أول المصدقين بدعوته.. وأعظم المتحمسين لها.. والحريصين على انتشارها.. فهذا وحده أصدق برهان، وأوضح آية على صدق محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصدق دعوته..!!

لقد بلغ من ثقة أبى بكر فى صاحبه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعظيم معرفته به، أنه ـ رضوان الله عليه ـ قبل دعوته وآمن به بمجرد عرضها عليه، فلم يحاول أو يراوغ.. كلا.. كلا..! وإنما قبل الإيمان به وبدعوته فور معرفته بذلك، فرحا بما سمع، وكأنه ـ رضى الله عنه ـ بل كأن هؤلاء الأربعة جميعهم كانوا ينتظرون ذلك منه، ويرشحونه فى قرارة نفوسهم لهذا الدور العظيم، لما يرونه من جميل فعاله، وعظيم أخلاقه، وحميد سجاياه ـ صلوات الله وسلامه عليه..!

يروى ابن إسحق فى سيرته، أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: **«مادعوت أحدا إلي الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة[1] ونظر وتردد، إلا ما كان من أبي بكر بن أبي قحافة، ما عكم[2] عنه حين ذكرته له وما تردد فيه»**

لقد بلغ من قناعة أبى بكر بصدق رسول الله وصدق دعوته أنه راح يدعو هو بنفسه الناس إلى الإسلام، وكان ـ كما يقول ابن إسحق: رجلا محبَّبًا لقومه سهلا، ذا خلق ومعروف، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لعلمه، وتجارته

(١) أى: تردد، وقلة إجابة
(٢) ماعدل عنه.

وحسن مجالسته. . فجعل يدعو إلى الله وإلى الإسلام مَن وَثق به من قومه، ممن يغشاه ويجلس إليه، فأسلم بدعائه[1]: عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبى وقاص، وطلحة بن عبيد الله. . فجاء بهم إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين استجابوا له - فأسلموا وصلوا[2]. . وهؤلاء النفر هم سابقو السابقين إلى الإسلام، وكلهم من المبشرين بالجنة - رضوان الله تعالى عليهم -. . !

ثم راح الإسلام ينتشر بين أهل مكة، وفشا فى أهلها من رجال ونساء وعبيد وإماء، حتى فشا ذكره بها. . ودخله فى خلال هذه السنوات الثلاث ما يقرب من الثمانين رجلا وامرأة وعبدا وأمة. . !

وأصبحت مكة مهيأة تماما لسماع دعوة التوحيد، وإعلان دين الله. . الإسلام. . ! فأنزل الله - تبارك وتعالى - أمره الحكيم: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾[3]. . واستجاب إمام الأنبياء وخاتم المرسلين لأمر ربه - سبحانه -

---

(١) أى: بدعوته.

(٢) سيرة ابن إسحق.

(٣) سورة الحجر: ٩٤

فجهر بدعوته على جبل الصفا، وأسمع كلمة التوحيد كل إنسان بها يومئذ.. ثم أنزل الله عليه قوله ـ تعالى:

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾(١)

.. فجمع أهله وأقاربه وأنذرهم جميعا عذاب الله ـ عز وجل ـ ..

روى الشيخان: البخارى ومسلم بسند ينتهى إلى ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أنه قال: لما أنزل الله ـ عز وجل ـ ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ أتى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الصفا، فصعد عليه، ثم نادى «ياصباحاه»، فاجتمع الناس إليه بين رجل يجئ إليه وبين رجل يبعث رسوله، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: **«يابني عبد المطلب، يابني فهر، يابني لؤي.. أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتموني..؟؟»، قالوا: نعم، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»**، فقال أبو لهب: تبا لك سائر اليوم.. أما دعوتنا إلا لهذا..؟! فأنزل الله: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾.

(١) سورة الشعراء: ٢١٤، ٢١٥.

وروى مسلم عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ دعا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قريشا فاجتمعوا له، فعمَّ وخصَّ، فقال: «**يابني كعب بن لؤي.. أنقذوا أنفسكم من النار، يابني مرة بن كعب.. أنقذوا أنفسكم من النار، يابني عبد شمس.. أنقذوا أنفسكم من النار، يابني عبد مناف.. أنقذوا أنفسكم من النار، يابني هاشم.. أنقذوا أنفسكم من النار، يابني عبد المطلب.. أنقذوا أنفسكم من النار، يافاطمة.. أنقذي نفسك من النار، فإني لا أملك لكم من الله شيئا، غير أن لكم رحما سأبُلُّها بِبِلاَلها**[1]»

ومن يوم أن أعلن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ دعوته، ناصبته قريش العداء.. وكما رأينا فى حديث الشيخين كان عمه أبو لهب أول المتطاولين عليه، المسيئين إليه.. وتجرأ غيره على أن يمد يده الآثمة بالسوء والأذى إلى رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وكان القرآن الكريم ينزل ليدافع عنه، ويشد من أزره..!

وإليك نماذج من أذى القوم واضطهادهم لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن آمن معه، ودفاع القرآن الكريم.. وتثبيته لفؤاده وللمؤمنين..!

---

(١) أى: أصلكم فى الدنيا ولا أغنى عنكم من الله شيئا.

## صور من أذي المشركين وتطاولهم عليه.. ودفاع القرآن عنه صلي الله عليه وسلم

قام رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يدعو إلى عبادة ربه ـ سبحانه وتعالى ـ وترك عبادة ما سواه، وبدأ بدعوته سرا، واستمرت دعوته السرية تلك قرابة ثلاث سنوات، أمر بعدها بالجهر بدعوته، حيث نزل عليه قوله ـ تعالى: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾(١) فأعلن ـ صلى الله عليه وسلم ـ دعوته..!

وقابلت قريش دعوة التوحيد بالصد عنها، وبالعنت والاضطهاد، وحاولت جاهدة أن تثنى رسول الله ـ صلي الله عليه وسلم ـ عن دعوته.. تارة بالترغيب والإغراء بالمال والسلطان.. وتارة أخرى بالترهيب والتعذيب.. وراحت تصب جام غضبها على أتباعه والمؤمنين به رجاء أن تفتنهم عن دينهم، وتبعدهم عن نبيهم، لكنها لم تفلح فى شئ من ذلك، فطاش عقلها، وتملكتها شهوة الانتقام.. فأعلنتها على الرسول وأتباعه حربا شعواء لا هوادة فيها.

(١) سورة الحجر: ٩٤.

وبالرغم من هذا كله ظل ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يحاول طوال ثلاثة عشر عاما غرس شجرة الإيمان في قلوب المكيين، وفي قلوب من جاورهم من أهل الطائف.. لكن قلوبهم كانت أقفر من صحراء مكة نفسها، وأشد قسوة من لهيبها..!!

لقد كان للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ الحظ الأوفر من الاضطهاد والعنت والظلم.. كيف..لا..؟ وهو الداعية إلى الله ـ سبحانه ـ وإلى دينه الجديد..؟!

وكان لهذا الاضطهاد وقع شديد وأليم على نفسية رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لولا أن الله ـ عز وجل ـ كان يثبت فؤاده ويشد من أزره.. بوحيه وكلماته.. لخارت قوته.. وضعفت عزيمته.

لقد كانت الإهانات تتوالى.. والتطاول عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ يزداد يوما بعد يوم.. وألوان الاضطهاد الجسماني والنفسي يأخذ صورا وألوانا شتى.. وكانت دائما ـ آيات القرآن الكريم تتنزل لتؤاسي جراحه.. وتمسح عبراته.. وتسرى عنه.. وتهدئ من ثورات نفسه.. وتثبت فؤاده.. وتقوى من عزيمته.. وتشد من أزره.. لهذا.. كان.. صلوات الله وسلامه عليه ـ أثبت أمام الخطوب والأهوال من جبل أشم..!!.. وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ
هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً
وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا
يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾(١).

**١ ـ ترغيب وترهيب..!! ثم تهكم ووعيد.!!**

يروى ابن جرير بسند ينتهى إلى ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن عتبة وشيبة ابنى ربيعة، وأبا سفيان بن حرب، ورجلا من بنى عبد الدار، وأبا البختري أخا بني أسد، والأسود بن المطلب بن أسد، وزمعة بن الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبا جهل بن هشام، وعبد الله بن على بن أمية، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل، ونبيها ومنبها ابني الحجاج السهميين.. اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، فقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه، فبعثوا إليه: أن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك.. فجاءهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سريعا، وهو يظن أنه قد بدا لهم فى أمره بداء،

---

(١) سورة الفرقان، من ٣١ : ٣٣.

وكان عليهم حريصا يحب رشدهم، ويعز عليه عنتهم، حتى جلس إليهم. . !

فقالوا: يامحمد. . إنا قد بعثنا إليك لنعذر فيك. . وإنا ـ والله ـ ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك. . لقد شتمت الآباء. . وعبت الدين. . وسفهت الأحلام. . وشتمت الآلهة. . وفرقت الجماعة. . فما بقى من قبيح إلا وجئته فيما بيننا وبينك. . !!. . فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا. . جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا. . وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا سوَّدناك علينا. . وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا. . وإن كان هذا الذى يأتيك بما يأتيك رئيا(۱) تراه قد غلب عليك، فربما كان ذلك، بذلنا أموالنا فى طلب الطب حتى نبرئك منه أو نعذر فيك. . ؟؟

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ **«مابي ماتقولون، ماجئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولا، وأنزل عليّ كتابا، وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا، فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ماجئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله حتي يحكم الله بيني وبينكم..!!»**

---

(۱) أى: تابعا من الجن.

فقالوا: يامحمد.. فإن كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك، فقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق منا بلادا، ولا أقل مالا، ولا أشد عيشا منا، فاسأل لنا ربك الذى بعثك بما بعثك به فليسير عنا هذه الجبال التى قد ضيقت علينا، وليبسط لنا بلادنا، وليفجر فيها أنهارا كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصي بن كلاب فإنه كان شيخا صدوقا فنسألهم عما تقول: حق هو أم باطل..؟؟، فإن صنعت ما سألناك وصدقوك صدقناك وعرفنا به منزلتك عند الله، وأنه بعثك رسولا كما تقول..؟؟

فقال لهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: **«ما بهذا بعثت.. إنما جئتكم من عند الله بما بعثني، فقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليَّ أصبر لأمر الله حتي يحكم الله بيني وبينكم..!!»**

قالوا: فإن لم تفعل لنا هذا فخذ لنفسك.. فسل ربك أن يبعث ملكا يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك.. وتسأله فيجعل لك جنات وكنوزا وقصورا من ذهب وفضة ويغنيك بها عما نراك تبتغى.. فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه، حتى نعرف فضل منزلتك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم..؟؟

فقال لهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: **«ما أنا بفاعل.. ما أنا بالذي يسأل ربه هذا، وما بعثت إليكم بهذا، ولكن الله بعثني بشيرا ونذيرا، فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليَّ أصبر لأمر الله حتي يحكم الله بيني وبينكم..!!»**

قالوا: فأسقط السماء كما زعمت أن ربك إن شاء فعل ذلك.. فإنا لن نؤمن لك إلا أن تفعل..؟؟

فقال لهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: **« ذلك إلي الله إن شاء فعل بكم ذلك..!!»**

فقالوا: يامحمد أما علم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه ونطلب منك ما نطلب، فيقدم إليك ويعلمك ما تراجعنا به..؟ ويخبرك بما هو صانع فى ذلك بنا إذا لم نقبل منك ما جئتنا به..؟ فقد بلغنا أنه إنما يعلمك هذا رجل باليمامة يقال له: الرحمن، وإنا والله لا نؤمن بالرحمن أبدا.. فقد أعذرنا إليك يامحمد.. أما والله لانتركك وما فعلت بنا حتى نهلك أو تهلكنا..!.. وقال قائلهم: نحن نعبد الملائكة وهى بنات الله.. وقال قائلهم: لن نؤمن لك حتى تأتى بالله والملائكة قبيلا..!

فلما قالوا ذلك قام رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عنهم، وقام معه عبد الله بن أبى أمية بن المغيرة، وهو ابن عمته عاتكة ابنة عبد المطلب، فقال: يامحمد: عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أمورا ليعرفوا بها منزلتك من الله فلم تفعل، ثم سألوك أن تعجل لهم ما تخوفهم به من العذاب.. فوالله لا أومن بك أبدا حتى تتخذ إلى السماء سلما ثم ترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها وتأتى معك بصحيفة منشورة، ومعك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول.. وايم الله لو فعلت ذلك لظننت أنى لا أصدقك..!

ثم انصرف عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وانصرف رسول الله إلى أهله حزينا أسفا لما فاته مما كان طمع فيه من قومه حين دعوه، ولما رأى من مباعدتهم إياه.. فأنزل الله ـ تبارك وتعالى ـ قوله الحكيم:

﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ
تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا
﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ
وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى
ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ

﴿سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾[1] ؟!

### ٢ ـ سخرية واستهزاء..!

أمعن المشركون فى التكذيب والضلال، والتطاول على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بألسنتهم القذرة، وراحوا كلما رأوه هنا أو هناك يسخرون منه ويهزأون به، ويقولون فيما يقولون: ألم تجد السماء سوى هذا اليتيم لتبعثه رسولا..؟؟ لقد كاد أن يفتننا عن آلهة الآباء والأجداد، ويجرنا إلي الإيمان به وبربه، لكننا لم نستجب له، ولم نسمع لقوله.

وسجل رب العالمين ـ عز وجل ـ هذا اللون من الاستهزاء بإمام أنبيائه وخاتم مرسليه فى محكم كتابه.. وبين ـ سبحانه ـ أنهم كالأنعام المعدومة الفهم، المسلوبة العقل، الفاقدة الإدراك والتمييز..؟

بل ويذهب القرآن فى الدفاع عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والتسرية عنه إلى أبعد من هذا.. حيث يقرر بعد وعيد هؤلاء وتهديدهم بالعذاب الشديد.. أن البهائم أحسن منهم حالا، إذ أن البهائم تعرف ربها، وتهتدى إلى

---

(١) سورة الإسراء من ٩٠: ٩٣.

مراعيها، وتنقاد لأربابها. . وهؤلاء لاينقادون للهدى، ولا يعرفون خالقهم ورازقهم سبحانه. . قال ـ سبحانه ـ:

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾(١). . !!

***

## ٣ ـ إساءة من العم وزوجه.. ووعيد من الرب سبحانه وتعالى:

من يوم أن أعلن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ دعوته المباركة، وصدع بها على جبل الصفا. . وعمه أبو لهب له بالمرصاد. . ففى هذا اليوم، قال قولته الفاجرة: تبا لك سائر هذا اليوم. . ألهذا جمعتنا. .؟!، ثم راح بعدها يتعقبه فى كل مكان، فإذا ما دخل ـ صلى الله عليه وسلم ـ بيتا أو ناديا، أو عرض على أحد ما جاء به، دلف خلفه هذا

(١) سورة الفرقان، من ٤١ : ٤٤ .

العم ليصد الناس عن دين الله، ويصرفهم عن دعوة التوحيد..!

وكانت زوجه أم جميل لا تقل عنه عداوة لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبغضا لدعوته السمحة.. وكانت ـ عليها لعنة الله ـ أشد الناس أذى له ـ صلى الله عليه وسلم ـ بلسانها القذر، ويدها الآثمة فكانت تحمل الشوك، والقاذورات، وتطرح ذلك كله على طريقه حيث يمر فى ذهابه وإيابه.. فأنزل الله ـ تبارك وتعالى ـ قوله الكريم:

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾(١).

***

## ٤ ـ عبرة وندم.. بعد فوات الأوان..!

يروى السهيلى(٢): أن عقبة بن أبى معيط صنع وليمة فدعا إليها قريشا، ودعا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأبى أن يأتيه إلا أن يسلم.. وكره عقبة أن يتأخر عن طعامه من أشراف قريش أحد، فأسلم ونطق بالشهادتين.. فأتاه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأكل من طعامه.

(١) سورة المسد

(٢) الروض الأنف للسهيلى.

وعلم صديقه وصفيه وخليله أمية بن خلف بن وهب بن حذافة الجمحى، فغضب لذلك غضبا شديدا، وعاتب صفيه وخليله عقبة بن أبى معيط، فقال عقبة: رأيت عظيما أن يحضر طعامى رجل من أشراف قريش، فقال له خليله أمية: وجهى من وجهك حرام حتى تأتى محمدا وتبصق فى وجهه، وتطأ عنقه، وتقول كيت وكيت، ففعل عدو الله عقبة ما أمره به خليله أمية، فأنزل الله ـ عز وجل ـ قوله:

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧ يَـٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝٢٨ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِلْإِنسَـٰنِ خَذُولًا ﴾(٣).

ويقول الضحاك: لما بصق عقبة فى وجه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رجع بصاقه فى وجهه وشوى وجهه وشفتيه، حتى أثر ذلك فى وجهه وأحرق خديه، فلم يزل أثر ذلك فى وجهه حتى قتل.

وحكى القرطبى عن جماعة منهم ابن عباس وسعيد بن المسيب أن الظالم هنا ـ فى هذه الآيات ـ يراد به عقبة بن أبى معيط، وخليله أمية بن خلف. ا هـ.

لقد عجل الله ـ تبارك وتعالى ـ لهذين الظالمين العقوبة فى

---

(١) من الندم والحسرة.
(٢) الإسلام.
(٣) سورة الفرقان من ٢٧: ٢٩.

الدنيا قبل الآخرة، ولم تمض بضع سنوات من فعلتهما تلك النكراء حتى مكن الله ـ تعالى ـ منهما حبيبه محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأنزل بهما عقاب الله فى الدنيا. . وعض كل واحد منهما أنامله حسرة وعبرة وندما لكن بعد فوات الأوان!! لقد أسر عقبة يوم بدر فأمر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عليا أن يقتله دون الأسرى جميعا، فقال عقبة: أأقتل دونهم. .؟؟، فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «نعم: بكفرك وعتوك» فقال: من للصبية؟ فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «النار». . !. . أما أمية فقتله رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم . . وكان ذلك من دلائل النبوة. . !

### ٥ ـ عرض يرفضه القرآن الكريم ويرده..!

يروى ابن هشام عن ابن إسحق: أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يطوف بالكعبة، فاعترضه الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى، والوليد بن المغيرة، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل السهمى، وكانوا ذوى أسنان فى قومهم، فقالوا: يامحمد. . هلم فلنعبد ماتعبد، وتعبد ما نعبد، فنشترك نحن وأنت فى الأمر، فإن كان الذى تعبد خيرا مما نعبد، كنا قد أخذنا بحظنا منه، وإن كان ما نعبد خيرا مما تعبد، كنت قد أخذت بحظك منه، فأنزل الله ـ تبارك وتعالى ـ فيهم:

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾ .(١)

أى.. إن كنتم لا تعبدون الله، المعبود بحق ـ سبحانه وتعالى.. إلا أن أعبد ما تعبدون من آلهة زائفة باطلة، فلا حاجة لى بذلك منكم.. لكم دينكم جميعا، ولى دينى..!

**٦ ـ حجة ساقطة.. ورد مفحم..!**

كان المشركون ينكرون البعث بعد الموت، ويقولون ما سجله القرآن الكريم على ألسنتهم: ﴿ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾(٢).

وحينما أعلن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن هناك بعثا ونشورا، وحسابا، وثوابا وعقابا، ثم جنة ونارا ـ عجبوا لذلك وأنكروه، بل وحاربوه حربا لا هوادة فيها.

وذات يوم مشى أبى بن خلف ـ عليه لعنة الله ـ إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعظم بال، قد تكسر وتفتت، فقال له: يامحمد.. أنت تزعم أن الله يبعث هذا بعد ما أرم..؟؟ ثم فته فى يده، ثم نفخه فى الريح نحو رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ..!

(١) سورة الكافرون.
(٢) سورة الجاثية: ٢٤

فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : **ـنعم..! أنا أقول ذلك.. يبعثه الله ـ تعالي ـ وإياك بعد ما تكونان هكذا، ثم يدخلك الله النار..!**

ومضى المغرور وظن أنه أقام الدليل القاطع على عدم إمكان البعث، وأنه بهذا الدليل المادى أفحم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم يكد ينتهى ذلك الحوار حتى نزل جبريل بآيات من الله ـ سبحانه وتعالى ـ تبطل حجة أبىٍّ الواهية الساقطة، وتقيم أكثر من دليل مادى ملموس محسوس على إمكان البعث، وأنه سهل يسير على مَن أنشأ هذا الكون وما فيه من العدم. . والآيات الكريمة هى قوله ـ عز وجل ـ:

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾(١).

(١) سورة يس، من ٧٧ ـ ٨٣.

### ٧ ـ أبو جهل.. والهول الذى رآه:

كان أبو جهل ـ عليه لعنة الله ـ من أشد الناس على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكلما رآه يصلى فى المسجد الحرام نهاه عن الصلاة فيه.. ثم قال ـ لعنه الله ـ: لو رأيت محمدا ساجدا لوطئت عنقه، فجاءه وهو ساجد وحاول أن يطأه كما قال.. لكنه نكص على عقبيه، فقيل له: مالك..؟؟، فقال: رأيت بينى وبينه خندقا من نار، وهولا، وأجنحة(١)..!

فأنزل الله ـ تبارك وتعالى ـ قوله: ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾(٢).

والمعنى ـ والله أعلم ـ كما رواه القرطبى عن الفراء إذ يقول: ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴾ وهو على الهدى وأمر بالتقوى، والناهى متولٍّ عن الذكر.. أى: فما

---

(١) ابن هشام

(٢) سورة العلق من٩ : ١٦.

أعجب هذا..؟!، ثم يقول: ويله..! ألم يعلم أبو جهل بأن الله يراه ويعلم فعله..؟، فهو تقرير وتوبيخ.

ويروى الترمذى بسند ينتهى إلى ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أنه قال: مرَّ أبوجهل على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يصلى عند المقام، فقال: ألم أنهك عن هذا يامحمد..؟! فأغلظ له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال أبو جهل: بأى شئ تهددنى يامحمد..؟ والله إنى لأكبر أهل الوادى هذا ناديا، فأنزل الله ـ عز وجل ـ: ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴾(1).. قال ابن عباس: والله لو دعا ناديه لأخذته زبانية العذاب من ساعته.

قال ابن إسحق: إن أباجهل ـ لعنه الله ـ قال: يامعشر قريش.. إن محمدا قد أبى إلا ماترون من عيب ديننا وشتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا وشتم آلهتنا، وإنى أعاهد الله لأجلسن له غدا بحجر ما أطيق حمله، فإذا سجد فى صلاته فضخت به رأسه، فأسلمونى عند ذلك أو امنعونى، فليصنع بعد ذلك بنوعبد مناف ما بدا لهم، قالوا: والله ما نسلمك لشئ أبدا فامض لما تريد.

فلما أصبح أبو جهل أخذ حجرا كما وصف، ثم جلس

(1) سورة العلق ١٧، ١٨.

لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ينتظره، وغدا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما كان يغدو، وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمكة وقبلته إلى الشام، فكان إذا صلى صلى بين الركن اليمانى والحجر الأسود، وجعل الكعبة بينه وبين الشام، فقام رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يصلى وقد غدت قريش فجلسوا فى أنديتهم ينتظرون ما أبو جهل فاعل، فلما سجد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ احتمل أبو جهل الحجر، ثم أقبل نحوه، حتى إذا دنا منه رجع منهزما منتقعا(١) لونه مرعوبا قد يبست يداه على حجره، حتى قذف الحجر من يده.. وقامت إليه قريش، فقالوا له: مالك يا أبا الحكم..؟ قال: قمت إليه لأفعل به ما قلت لكم البارحة، فلما دنوت منه عرض لى دونه فحل من الإبل.. لا والله مارأيت مثل هامته ولا مثل قصَرته(٢)، ولا أنيابا لفحل قط، فهمَّ بى أن يأكلنى..!

قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: **«ذلك جبريل ـ عليه السلام ـ لو دنا لأخذه.»**

***

## ٨ ـ سوء أدب وتطاول:

كان خباب بن الأرت.. ـ رضى الله عنه ـ صاحب

(١) أى: متغيرا.
(٢) أصل العنق.

رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قيْنًا[1] بمكة يعمل السيوف.. وكان قد باع من العاص بن وائل سيوفا عملها له، حتى إذا كان له عليه مال فجاء يتقاضاه، فقال له: ياخباب.. أليس يزعم محمد صاحبكم هذا الذى أنت على دينه أن فى الجنة ما ابتغى أهلها من ذهب أو فضة أو ثياب أو خدم..؟ قال خباب: بلى، قال: فأنظرني إلى يوم القيامة ياخباب حتى أرجع إلى تلك الدار فأقضيك هنالك حقك، فوالله لاتكون أنت وأصحابك، ياخباب آثَرَ عند الله منى، ولا أعظم حظا فى ذلك[2].. فأنزل الله ـ تعالى ـ فيه:

﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾[3].

---

(١) الحداد.

(٢) سيرة ابن إسحق.

(٣) سورة مريم، من ٧٧ ـ ٨٠.

# الباب الرابع

## محمد . صلى الله عليه وسلم ـ المثل الأعلى للإنسان الكامل

* المهام التى كُلف بها صلى الله عليه وسلم.
* الغرض من بعثته صلى الله عليه وسلم.
* إنسانيته صلى الله عليه وسلم.
* أخلاقه صلى الله عليه وسلم.
* عبادته صلى الله عليه وسلم.
* حفظ الله تعالى له صلى الله عليه وسلم.

عـــــن:

## ١ - المهام التى كلف بها - صلى الله عليه وسلم ..

# يقـــول:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ۝٤٦ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾. (١)

فى الأبواب الثلاثة السابقة أصخنا السمع معا للقرآن الكريم وهو يحدثنا حديثا مستفيضا عن البشارات التى سبقت مولد رسولنا الكريم - صلى الله عليه وسلم - ثم عن نبوءته وبعثته، ثم عما تعرض له - صلى الله عليه وسلم - من أذى أو اضطهاد.

والآن . . تعالوا لنصغى معا لحديث القرآن الكريم عن شخصية رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تلك الشخصية الفذة، الفريدة فى باب الإنسانية كلها، المميزة بسجاياها،

(١) سورة الأحزاب: ٤٥ - ٤٧.

وأخلاقها، وسلوكياتها، تلك الشخصية التى لم يع التاريخ فى أى فصل من فصوله أروع ولا أعظم منها. . !

ومن أحاديث القرآن المتنوعة عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حديثه عن المهام التى كلف بها، والأمانة التى حملها. . لقد تناول القرآن الكريم هذا الموضوع فى أكثر من سورة من سوره الشريفة، وحسبنا فى دراستنا هذه، تلك الآيات التى جاءت فى سورة الأحزاب من الآية ٤٥ : ٤٧، والتى صدرنا بها هذا الباب.

لقد اقتضت طبيعة بعثته ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أن يكون ﴿ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَـٰذِيرًا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾(١).

إنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ مبشر بنعيم مقيم فى جنة عرضها السموات والأرض لمن سمع دعوته، واستجاب له، فأمن واتقى، وعمل بما جاء به من عند ربه ـ عز وجل ـ فأتمر بأمره، واجتنب ما نهى عنه.

ونذير. . بين يدى عذاب شديد، لمن لم يستجب لدعوته، ولم يؤمن بما جاء به من عند رب العالمين ـ تبارك وتعالى ـ

---

(١)سورة الأحزاب: ٤٥، ٤٦.

نذير لهؤلاء الذى تنكبوا الصراط المستقيم، وركبوا رءوسهم، وتمادوا فى غيهم وضلالهم، وعكفوا على عبادة أصنام لا تضر ولاتنفع، بل لا تجلب لنفسها نفعا، ولا تدرأ عن نفسها ضرا. . نذير لمن لم يستجيبوا لما يحييهم. . !

وداع. . إلى الإيمان بموجد هذا الكون، ومالك أمره، ومصرف شأنه. . إلى الإيمان بوحدانيته ووجوده ـ سبحانه وتعالى ـ وأنه لا يستحق العبادة والطاعة إلا هو عز وجل. . !

وسراج. . ينير دروب الحياة لتسلكها البشرية على هدى وبصيرة؛ حتى تصل على ضوء ما جاء به من هداية وإيمان ورشاد إلى بر السلامة وشاطئ الأمان. . إنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ سراج بسلوكه وأخلاقه ودعوته، قال تعالى:

﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(١).

وهو ـ صلى الله عليه وسلم ـ سراج بما يحمل من قرآن كريم، قال ـ سبحانه :

---

(١)سورة المائدة: ١٥: ١٦.

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾(١).

وقال ـ عز وجل ـ: ﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾(٢).

***

أما أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ شاهد.. فهو شاهد على إيمان من آمن، وكفر من كفر من أمته، بل ومن الأمم السابقة.. ولقد أكد رب العالمين ـ سبحانه وتعالى ـ تلك القضية تأكيدا لا يدع مجالا للشك. إذ صرحت آيات كثيرة بهذا المعنى.. منها قوله ـ تعالى ـ:

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴾(٣).

---

(١) سورة الشورى: ٥٢، ٥٣.

(٢) سورة التغابن: ٨.

(٣) سورة المزمل: ١٥.

وقوله ـ سبحانه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا(١) لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾(٢)

وقوله ـ عز وجل ـ: ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ ﴾(٣).

ولعل مما تجدر الإشارة إليه أن الآيتين الأخيرتين من سورة البقرة والحج، زادتنا أمرا آخر. . هو: أن هذه الأمة ستكون شاهدة على الأمم السابقة يوم القيامة أمام الله ـ عز وجل ـ وأن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سيزكى هذه الشهادة، فيشهد على عدالة هذه الأمة.

لكن. . ! كيف يتحقق ذلك. .؟؟ روى الإمام البخارى بسند ينتهى إلى أبى سعيد ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: **«يدعي نوح يوم القيامة، فيقال له: هل بلغت..؟؟، فيقول ـ عليه السلام ـ: نعم، فيدعي قومه، فيقال لهم: هل بلغكم..؟؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، وما أتانا من أحد، فيقال لنوح: من يشهد لك..؟، فيقول: محمد وأمته..!!»**.

(١) أي: عدولاً أو خيارا.
(٢) سورة البقرة: ١٤٣.
(٣) سورة الحج: ٧٨.

وروى الإمام أحمد عن أبى سعيد ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: **«يجئ النبي يوم القيامة، ومعه الرجلان وأكثر من ذلك، فيدعي قومه، فيقال: هل بلغكم هذا..؟ فيقولون: لا..، فيقال له: هل بلغت قومك..؟، فيقول: نعم، فيقال: من يشهد لك..؟ فيقول : محمد وأمته، فيدعي بمحمد وأمته، فيقال لهم: هل بلغ هذا قومه..؟ فيقولون: نعم، فيقال: وما علمكم..؟ فيقولون: جاءنا نبينا ـ صلي الله عليه وسلم ـ فأخبرنا أن الرسل قد بلغوا..، فذلك قوله تعالي:**

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾(١).

وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه، وابن أبى حاتم بسند ينتهى إلى جابر بن عبد الله ـ رضى الله عنهما ـ أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: **«أنا وأمتي يوم القيامة علي كوم**(٢) **مشرفين علي الخلائق، مامن الناس أحد إلا وَدَّ أنه منا، وما من نبي كذبه قومه إلا ونحن نشهد أنه قد بلغ رسالة ربه ـ عز وجل»**.

---

(١)سورة البقرة: ١٤٣.

(٢) الكوم: المواضع المشرفة العالية واحدها: كومة.

**وعــــن:**

## ٢ ـ الغاية من بعثته ـ صلى الله عليه وسلم..

## يقـــول:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾(١)

أجل..! لقد كانت بعثته ـ صلى الله عليه وسلم ـ رحمة ما بعدها رحمة.. رحمة للإنسانية كلها فى حياتها الدنيا الفانية.. رحمة لها فى آخرتها الباقية..!

لقد كان الناس قبل بعثته ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعيشون..، وكأنهم يعيشون فى غابة.. لا قانون يحتكمون إليه إلا القوة، القوى فيهم يسلب حياة غيره، وماله، وعرضه.. والضعيف ضائع مستعبد للغير.. فلما بعث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حرر المجتمع من هذا الظلم، وانتزع منه كل أنواعه، ونشر فيه الطمأنينة والأمن على

---

(١) سورة الأنبياء:١٠٧.

النفس، والمال، والعرض.. فعاش الناس فى سلام ووئام، يظلهم احترام متبادل، ومحبة ومودة، وذاك لعمرى رحمة ما بعدها رحمة..!

ومن أثر بعثته ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أن من آمن به، وبدعوته.. يعيش فى سلام نفسى، فلا قلق، ولا خوف، ولا تمزق نفسى، ولا ضياع..!، وهذه الراحة النفسية هى سعادة لا مثيل لها.. بل قل: رحمة ما بعدها رحمة..!

هذا السلام النفسى، الذى هو أثر مباشر من آثار بعثته ـ صلى الله عليه وسلم ـ تفتقده المجتمعات اللادينية.. فهم وإن كانوا قد وصلوا إلى قمة التحضر والتمدن إلا أنهم يعيشون فى قلق وتمزق، وضياع.. وهذا شقاء ما بعده شقاء..!

هذا فى الدنيا.. أما فى الآخرة فمن آمن به، واهتدى بهديه، واتقى ربه ـ سبحانه وتعالى ـ فإن مأواه جنة عرضها السموات والأرض.. يتمتع فيها بما لاعين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.. وهذه رحمة مابعدها رحمة..!، قال تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ

تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴾(١)

وقال ـ سبحانه ـ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾(٢)

***

*** صور من الرحمة التي بعث بها:**

أ ـ **إنصافه المرأة:** لقد كانت المرأة قبل الإسلام مهضومة الحقوق مهيضة الجناح، وكان ينظر إليها فى كثير من المجتمعات على أنها من سقط المتاع. ففى الجزيرة العربية.. كان الكثير منهم ينظر إليها على أنها شئ غير مرغوب فيه، فإذا بشر أحدهم بأن زوجته ولدت له أنثى استشاط غضبا، واستولى عليه حزن قاتل، وكآبة لا تحتمل، وحيرة لا مخرج منها.. أيتركها تحيا ويحيا معها العار..؟ أم يدفنها فى التراب..؟ يقول ـ سبحانه وتعالى ـ:

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾(٣)..!!

---

(١) سورة الرعد: ٢٨:٢٩
(٢) سورة الزمر: ٢٢.
(٣) سورة النحل: ٥٨, ٥٩.

كانت كذلك من سقط المتاع، تورث كما تورث تركة الميت، يرثها ابن زوجها الأكبر، فإن شاء تزوجها بعد أبيه من غير مهر، وإن شاء زوجها من يريد ويأخذ هو مهرها.

أما عند اليهود.. فكان من حق أبيها أن يبيعها وهى صغيرة ويقبض ثمنها.. وفى المجتمعات الغربية كانوا ينظرون إليها على أنها رجس من عمل الشيطان، وما خلقها الله سبحانه ـ فى زعمهم ـ إلا لتكون خادمة للرجل فقط، وليس لها عندهم حقوق على الإطلاق..!

تلك مكانة المرأة فى المجتمعات كلها قبل الإسلام، وبُعث نبى الرحمة، إمام الأنبياء، وخاتم المرسلين محمد بن عبد الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فرفع من شأنها، وأعلى من مكانتها، وعمل على صيانة شرفها وعرضها، وحافظ على كرامتها، ومنحها حق المساواة مع الرجل فى الأمور الإنسانية، وفى المعاملات المالية، وفى طلب العلم، وفى حق الإرث والتملك.. إنها ترث غيرها ـ كالرجل تماما وإن كان نصيبها على النصف منه لاعتبارات كثيرة ـ ترث أباها، وترث ابنها، وترث أخاها، وترث زوجها، يقول ـ سبحانه وتعالى ـ:

﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً

فَلَهَا ٱلنِّصْفُ﴾. ويقول ـ سبحانه: ﴿وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم﴾(١)

ياله من عدل وإنصاف.. لا نجد لهما مثيلا فى غير الشريعة الإسلامية الغراء.. لقد كانت قبلُ تورث ولا ترث، بل كانت تباع وتشترى، وتدفن حية فى التراب.. فلما بعث نبى الرحمة بشريعة الإسلام العادلة الرحيمة.. رفع من خسيستها، ورد لها اعتبارها كإنسانة، ومنحها حق التملك كالرجل تماما..

كانت قبل الإسلام تجبر على الزواج، ولا يقام لرأيها فيمن سيشاركها حياتها أدنى اعتبار.. ومنحها الإسلام حق الموافقة أو الرفض.. إلى غير هذه الحقوق التى منحها الإسلام الحنيف.. إنها رحمة ما بعدها رحمة..!!

**ب ـ تحرير الأرقاء**.. بعث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأبواب الرق مفتحة على مصراعيها.. فى الجزيرة العربية.. والهند.. وعند فارس.. والرومان.. ومصدره: السطو.. والقوة.. والغلبة.. والسرقة.. والغزو لا لفكرة أو مبدأ.. وإنما لمجرد شهوة الأقوياء فى استعباد الضعفاء

---

(١) سورة النساء: ١١, ١٢.

واسترقاقهم، والتسلط عليهم، وسلب حرياتهم، وتسخيرهم في الحقول، والأعمال الشاقة، بما يعود على الأقوياء المتغطرسين بحياة الترف، وعيشة البذخ..!

جاء الإسلام وفى كل بيت من بيوت مكة.. آدميون سلبت منهم آدميتهم، وسرقت إنسانيتهم، وأصبحوا يرسفون فى أغلال الرق وسلاسل العبودية، ويسخرون تسخير الحيوانات والبهائم تماما..!

جاء الإسلام والديانتان الكبيرتان: اليهودية والنصرانية، تبيحان الرق، وتعترفان به.. جاء وبابه مفتوح على مصراعيه، والمصادر التى تصب فيه شلالات هادرة.. فماذا فعل الإسلام..؟ هل أنشأ رقا جديدا..؟ هل توسع فى مصادره..؟ هل فتح له أبوابا أخرى..؟؟

كلا..! وإنما ضيق هذه المصادر، وأغلق الكثير من الأبواب فى الوقت الذى فتح فيه منافذ كثيرة ومتعددة تؤدى إلى حرية الأرقاء.. وجعل روافد كثيرة تصب فى بحر الحرية..! إى وربى.. هذا ما فعله الإسلام المفترى عليه.. وذاك لون من ألوان الرحمة التى جاء بها نبيه العظيم ـ: محمد ـ صلى الله عليه وسلم..!

لقد بعث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لرحمة الأرقاء رحمة لا مثيل لها.. جاء ليرد لهم إنسانيتهم، ويعيد إليهم بشريتهم وآدميتهم المسلوبة منهم.. ولك أن تقارن بين قول بولس لأهل أفسيس: (أيها العبيد.. أطيعوا سادتكم حسب الجسد بخوف ورعدة فى بساطة قلوبكم كما للمسيح، لا بخدمة العين كمن يرضى الناس، بل كعبيد المسيح) وكذا قول بطرس الرسول: (أيها الخدام.. كونوا خاضعين بكل هيبة للسادة)(1).

وبين قول نبى الرحمة ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ حيث يقول عن العبيد، مخاطبا السادة: **« إخوانكم ـ أي: عبيدكم ـ خولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يطعم، وليلبسه مما يلبس، ولاتكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم»**(2).

يالرحمة الإسلام.. ويالسمو تعبير نبى الرحمة ـ صلى الله عليه وسلم..! بينما يأمر بولس الرسول أهل أفسيس بأن يطيعوا سادتهم بخوف ورعدة، ويناديهم: أيها العبيد.. ولم يوص سادتهم بأدنى كلمة رحمة بهم.. إذ بنا نرى نبى الإسلام محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ يرفع من شأن

(1) العهد الجديد.

(2) صحيح البخارى عن المعرور بن سويد.

هؤلاء العبيد، ويجعلهم إخوة للأحرار تماما، بل ويكلف سادتهم بأن يعاملوهم معاملة الأخ لأخيه، وأن لايثقلوا عليهم في عمل ما - إنها رحمة الإسلام العظيم.. التى جاء بها رسول الله محمد إمام الأنبياء وخاتم المرسلين.. صلوات الله وسلامه عليه(١)..! بل ويرفعوا من شأنهم، ويحافظوا على شعورهم كآدميين فيقول - صلى الله عليه وسلم -: **«لايقل أحدكم: هذا عبدي.. وهذه أمتي.. وليقل: فتاى.. وفتاتي»**(٢).

**جـ - الاهتمام بالضعفاء..** كان الناس فى الجاهلية غلاظ الطباع، قساة القلوب، لا يرحمون يتيما، ولا يعطفون على فقير، ولايعينون مسكينا على حاجته.. وكان هؤلاء الضعفاء مهضومى الحقوق، مسلوبى الإنسانية والصفات الآدمية، ضائعى الكرامة، مهانين من المجتمع الذى يعيشون فيه، محتقرين ممن يحيطون بهم.

وبعث إمام الإنبياء وخاتم المرسلين محمد - صلى الله عليه وسلم - فأعاد إليهم إنسانيتهم المعتدى عليها، وآدميتهم المسلوبة منهم، وكرامتهم التى داسها أقوياء وأثرياء مجتمعهم، ورفع من شأنهم، ونفض عنهم غبار الذلة والمهانة، وانتشلهم من وهدة الضياع والهوان..!!

(١) يراجع موضوع الأرقاء فى كتابى: طريق النجاة.. ص ١٤٥ ومابعدها.. فهو هناك أكمل وأوفى.
(٢) رواه البخارى ومسلم وأحمد.

لقد اهتم القرآن الكريم، دستور الإسلام الأغر، وقانونه المحكم، ومنهجه القويم بالضعفاء من الناس: اليتيم.. المسكين.. الفقير.. ومَن على شاكلتهم اهتماما لا مثيل له فى الشرائع الأخرى، سواء أكانت شرائع سماوية أو وضعية.. حتى عند هؤلاء الشيوعيين الذى يتباكون على الإنسان ويزعمون أن ثورتهم الحمراء قامت من أجله.. لقد جعلوه ترسا فى آلة.. لا كرامة له، ولا حرية له، وإنما هو ترس فى آلة تدور حيث دارت.. يأكل بقدر ما يعمل.. فإن عجز عن العمل لا يجد ما يأكله..!

إن الاهتمام باليتيم، والفقير، والمسكين، وغيرهم من ذوى الحاجات، والضعفاء، فى نظر الإسلام دين وعبادة، نظفر بالسعادة إن قمنا بها، وبالشقاء إن تهاونّا فيها.

لقد جعل الإسلام الإحسان إلى هؤلاء الضعفاء قرين عبادة الله وعدم الإشراك به شيئا، إذ يقول الحق - سبحانه - فى محكم كتابه:

﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ ﴾(١).

(١) سورة النساء: ٣٦.

كما جعله قرين الإيمان بالله ـ سبحانه ـ وباليوم الآخر، والملائكة والكتب والأنبياء.. وغصنا من أغصان البر الذى يثاب عليه المرء يوم القيامة أحسن مثوبة، يقول ـ سبحانه ـ:

﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ ﴾(١).

كما جعله سببا مباشرا فى النجاة يوم القيامة، والفوز برضا الله ورضوانه: ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾(٢).

وجعل الإساءة إلى هؤلاء الضعفاء من التكذيب بالدين:

﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾(٣).

---

(١) سورة البقرة: ١٧٧.
(٢) سورة البلد: من ١١: ١٦.
(٣) سورة الماعون: من ١: ٣.

ليس هناك مبادئ أرحم بالإنسان من هذه المبادئ. . وليس هناك تعاليم أحرص على خير الإنسان من هذه التعاليم الإلهية. . إنها الرحمة التى جاء بها نبى البر والرحمة. . محمد . . صلى الله عليه وسلم. . !!

***

هذه بعض آثار الرحمة التى جاء بها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وغيرها كثير وكثير. . لقد انتشل الإنسانية من وهدة الجهالة وعبادة الأصنام والأوثان، وأخرجها من ظلمات الكفر وضلال الشرك إلى نور الهداية والإيمان، وحررها من قيود الطغيان والجبروت والظلم. . !

لقد كانت بعثته رحمة للإنسان فى معاشه ومعاده، فى دنياه وأخراه. . وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾[1].

---

(١) سورة الأنبياء: ١٠٧

**وعـــــن :**

## ٣ ـ إنسانياته صلى الله عليه وسلم...

# يقـــــول:

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾(١)

لقد كان رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يحمل بين جنبيه قلبا كبيرا، طُبع على الرحمة، وحُشي رأفة، وملئ محبة ومودة.. فلا غرو.. إذن.. أن ينعته ربه ـ عز وجل ـ بهاتين الصفتين: رءوف.. رحيم..!!

كان يشق على نفسه مشقة شديدة، ما يكون فيه تعب لأمته، أو مشقة عليها.. لهذا نراه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يقول: « **إن هذا الدين متين.. فأوغل فيه برفق.. فإن**

---

(١) سورة التوبة: ١٢٨.

**المنبت لا أرضا قطع.. ولا ظهرا أبقي..!»**[1]، ويقول: **«إن الدين يسر، ولن يُشادَّ الدين أحد إلا غلبه، فسددوا، وقاربوا، وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة[2] وشئ من الدلجة[3]»**.

ويعلن على قومه جميعا أن التشدد فى غير موضعه، وحمل النفس مالاتطيق من ضروب العبادة، ليس من الدين فى شئ، بل ربما انتهى بصاحبه إلى الهلاك والضياع.. يروى مسلم عن ابن مسعود - رضى الله عنه - أنه - صلى الله عليه وسلم - قال: «**هلك المتنطعون.**» قالها ثلاثا. أى: هلك المتعمقون المتشددون فى غير موضع التشدد.

وحينما بلغه أن جماعة من أصحابه اختاروا الأمر الصعب فى التقرب إلى الله - سبحانه وتعالى - فعزم أحدهم على صيام الدهر كله.. والآخر على قيام الليل كله.. والثالث على اعتزال النساء.. غضب - صلوات الله وسلامه عليه - من أجل عنتهم هذا بأنفسهم، وأعلن للناس أجمعين من فوق منبره الشريف: أن التشدد والتنطع ليس من الدين فى شئ.. حيث قال - صلى الله عليه وسلم -: **«أما والله إني لأخشاكم لله.. وأتقاكم له.. لكنى أصوم وأفطر.. وأصلي وأرقد.. وأتزوج النساء.. فمن رغب عن سنتي فليس مني[4]»**.

---

(١) رواه البيهقى والحاكم.
(٢) الغدوة: أول النهار، والروحة: آخره، والدلجة: آخر الليل.
(٣) رواه البخارى عن أبى هريرة.
(٤) رواه البخارى عن أنس

لقد كان ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يمتنع أحيانا عن أمر أمته بعبادة ما تجنبا للمشقة.. اسمعه يقول: «**لولا أن أشق علي أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة**(١)».

وكان أحايين كثيرة يمتنع..! ـ إشفاقا على أمته ـ عن القيام ببعض العبادات حتى لا تفرض عليها.. فلم يداوم على صلاة التراويح فى المسجد من أجل هذا.. وحينما سأله سائل عن حكم الحج.. أجابه بأنه فرض، لكن.. حينما سأله قائلا: أفى كل عام يارسول الله..؟ سكت ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ولم يجبه حتى كرر السؤال ثلاثا، وهنا قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**لو قلت: نعم لوجب، ولما استطعتم.. ذروني ماتركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم، واختلافهم علي أنبيائهم، فإن أمرتكم بشئ فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شئ فدعوه**(٢)».

****

وكما كان ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يعز على نفسه الرحيمة، وقلبه الكبير، كل ما يكون فيه تعب أو مشقة لأمته.. كان كذلك حريصا على هدايتهم، وعلى وصول الخير الدنيوى والأخروى إليهم، لايألو فى ذلك جهدا، ولا

---

(١) رواه مالك عن أبى هريرة.

(٢) رواه مسلم عن أبى هريرة.

يدخر وسعا، يستوى فى ذلك عنده القريب والبعيد.. فهذا عمه أبو طالب الذى وقف إلى جواره ينصره ويؤازره، حينما أدركته الوفاة، جاءه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال فى حرص على هدايته: «**ياعم قل: لا إله إلا الله.. كلمة أحاجّ لك بها عند الله..!**»، قال: يا ابن أخى.. قد علمت إنك لصادق، ولكن أكره أن يُقال: خدع عند موته.. فانصرف عنه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو فى أشد ما يكون حزنا على عدم إعلانه كلمة التوحيد، ليشهد له بها أمام الله يوم القيامة، فنزل حينذاك قول الله تعالى:

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾(١).

ويقول ابن إسحق: فلما تقارب من أبى طالب الموت نظر العباس إليه يحرك شفتيه، فأصغى إليه بأذنه، فقال: ياابن أخى.. والله لقد قال أخى الكلمة التى أمرته أن يقولها.. فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ «لم أسمع..!»(٢).

***

(١) سورة القصص: ٥٦.

(٢) سيرة ابن هشام جـ٢ ص ٤٤٣.

ولم يكن حرصه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فحسب على قريب له، أو على من ناصره وآزره، بل كان حرصه أشد على الناس أجمعين، حتى من آذوه منهم وعذبوه.. فيوم أن ذهب إلى الطائف ليعرض نفسه ودعوته على قبائلها، أخرجه سادتها، وأغروا به العبيد والسفهاء والصبيان، يرمونه بالحجارة، ويقذفونه بها، فرفع وجهه إلى خالقه وبارئه ليبثه شكواه، قائلا: «اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى، وقلة حيلتى، وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين.. أنت رب المستضعفين وأنت ربى، إلى من تكلنى..؟! إلى بعيد يتجهمنى أم إلى عدو ملكته أمرى..؟ إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى..! ولكنِ عافيتك هى أوسع لى.. أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك أو يحل على سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك»(١)

وقيل: إن جبريل أتى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حينئذ وقال: يامحمد.. ربك يقرئك السلام، ويقول لك: إن ملك الجبال رهن إشارتك، فمره بما تشاء، ويقول ملك الجبال: لو أمرتنى أن أحمل عليهم هذين الأخشبين وأطبقهما عليهم لفعلت.. لكن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يرفع وجهه

(١) سيرة ابن هشام جـ٢ ص ٤٤٦.

إلى ربه ـ سبحانه ـ ويقول: «**اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**»، فيقول جبريل: صدق من سماك الرءوف الرحيم..!!

***

وكتاب الله ـ سبحانه وتعالى ـ يؤكد أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يحزن الحزن كله، ويتألم الألم كله على تولى قومه عن الإيمان، وإعراضهم عن دعوته، وتنكبهم طريق الهداية، حتى وكأنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قاتل نفسه أسفا وحزنا عليهم، يقول ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾(1).

ويدخل فى باب حرصه على هداية قومه ما حكاه البعض على أنه عتاب من الله لحبيبه محمد.. ولكنه فى الحقيقة وسام شرف وفخار، وضعه العزيز الحكيم ـ سبحانه ـ على جبينه.. أعنى ما جاء فى قول الله ـ سبحانه وتعالى ـ:

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾

---

(1) سورة الكهف: ٦.

﴿ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾[1].

أجل.. ! أعرض رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن ابن أم مكتوم، هذا الرجل الأعمى.. لكن.. ماكان إعراضه وتوليه عنه تعاليا أو تكبرا.. ! وعبّس وجهه.. وما كان ذلك تبرما به.. وضيقا منه.. كلا.. كلا.. ! وإنما كان ذلك كله حرصا منه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ على هداية صناديد قريش، ونزع ذلك الرين الذي ران على قلوبهم، حتى يروا نور الإيمان، ويبصروا الحقيقة.. رجاء أن يسلموا ويسلم بإسلامهم مَن وراءهم.. لهذا وحده كان إعراض الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن ذلك الأعمى وتوليه.. !!

(١) سورة عبس من ١ : ١١.

وعــــن:

## ٤ ـ أخلاقه صلى الله عليه وسلم...

# يقــــول:

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾(١)

إن جوانب عظمة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كثيرة ومتعددة، ومنشأ عظمته: خلقه.. هذا الذى وصفه رب العالمين ـ عز وجل ـ فى محكم كتابه: بأنه عظيم.

وإذا رحنا نتساءل عن هذا الخلق العظيم الذى كان يتحلى به إمام الأنبياء وخاتم المرسلين ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لوجدنا الجواب الشافى عند أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ فيما رواه مسلم عن سعيد بن هشام ـ رضى الله عنه ـ أنه قال: «قلت: ياأم المؤمنين.. أنبئينى عن خلق رسول الله ـ

---

(١) سورة القلم: ٤

صلى الله عليه وسلم ـ. .؟، فقالت: ألست تقرأ القرآن. .؟ قلت: بلى، قالت: فإن خلق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان القرآن».

وفيما جاء فى القرطبى: وسئلت أيضا ـ أى: أم المؤمنين عائشة ـ عن خلقه ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقرأت ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾(١) إلى عشر آيات، وقالت: ماكان أحد أحسن خلقا من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما دعاه أحد من الصحابة ولا من أهل بيته إلا قال: لبيك، ولذلك قال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾(٢).

والحق الذى لا مراء فيه. . أنه لم يذكر خلق محمود إلا وكان للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ منه الحظ الأوفر، وما كان خلقه عظيما إلا لاجتماع مكارم الأخلاق فيه. . وكيف. . لا. .؟ وقد بعث ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليقيم دولة الأخلاق الفاضلة فى دنيا الناس، ويرسى قواعدها على أسس من هدى الله وتعاليمه السمحة، ومبادئه السامية. . !، قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»(٣).

---

(١) سورة المؤمنون: ١.
(٢) سورة القلم: ٤.
(٣) رواه مالك فى موطئه.

إن خلقه ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذا الذى وصف بأنه عظيم، ثمرة أدب ربانى، وتربية إلهية حكيمة.. يقول[1] عنها نفسه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ: «**أدبني ربي تأديبا حسنا إذ قال:**

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[2]

فلما قبلت ذلك منه، قال: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[3].

لقد كان هذا الخلق العظيم تطبيقا عمليا صادقا وأمينا، للقرآن الكريم.. إذ كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى سلوكه.. وأخلاقه.. فى حركاته وسكناته.. فى فعله وتركه.. فى أمره ونهيه.. فى رضاه وغضبه.. فى حربه وسلمه.. مثلا حيا للقرآن الكريم.. ولن نكون مبالغين إذا قلنا: إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان الوجه المرئى والمشاهد، والمحسوس والملموس للقرآن الكريم.. إن الصفحة الأولى من القرآن هى ذلك الهدى الإلهى المكتوب فى المصحف.. والصفحة الثانية والأخيرة منه هى ذلك السلوك المحمدى القويم..!!

---

(١) ذكره القرطبى.

(٢) سورة الأعراف: ١٩٩.

(٣) سورة القلم: ٤

ومن ثم.. حق لأم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ أن تقول: «**كان خلقه القرآن**».. واستحق هذا الخلق أن يوصف بأنه: «عظيم».. وكان صاحبه ـ بحق ـ المثل الأعلى للإنسان الكامل..!!

***

لقد كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ يملك ناصية الأخلاق الحميدة، ويتربع على عرش الفضيلة، وكان دائما فى كل جانب من جوانب الأخلاق يضرب المثل من نفسه.. كان حليما.. صبورا.. شجاعا.. مقداما.. كريما جوادا.. رءوفا رحيما.. إلى غير ذلك من صفات الكمال.

وحسبنا ـ هنا ـ أن نتدارس بعض هذه الصفات لنرى أثرها فى نشر دعوته، وإليك نماذج منها:

### أ ـ حلمه.. صلى الله عليه وسلم:

لقد بلغ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى صفة الحلم حد الكمال، وكان فيها مضرب الأمثال.. وكيف.. لا..؟ وقد أدبه ربه ـ سبحانه وتعالى ـ بمثل قوله:

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾(١).

يقول القرطبى: لما نزلت هذه الآية الكريمة سأل رسول

(١) سورة الأعراف: ١٩٩

الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ جبريل عن تأويلها. .؟ فقال جبريل ـ عليه السلام ـ له: حتى أسأل العليم ـ أى: الله عز وجل ـ ثم ذهب وأتاه فقال له: يامحمد. . إن الله يأمرك أن تصل من قطعك. . وتعطى من حرمك. . وتعفو عمن ظلمك».

لهذا. . كان ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ دائما يكظم غيظه، ويسيطر على نفسه وقت الغضب، ويقابل الإساءة بالعفو والصفح الجميل. . يروى الإمام أحمد عن عائشة رضى الله عنها ـ أنها قالت: **«لم يكن رسول الله ـ صلي الله عليه وسلم ـ فاحشا ولا متفحشا ولا صخابا في الأسواق ولا يجزي بالسيئة مثلها، ولكن يعفو ويصفح»**.

وإذا تركنا كلام أم المؤمنين عائشة ـ رضوان الله عليها ـ عن حلم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ جانبا، ورحنا نبحث عن التطبيق العملى من سلوك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لوجدنا لذلك صورا عديدة:

أ ـ يروى أحمد عن أنس ـ رضى الله عنه ـ أنه قال: كنت أمشى مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعليه برد نجرانى غليظ الحاشية، فأدركه أعرابى فجبذه جبذة حتى رأيت

صفحة عنق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد أثرت بها حاشية البرد من شدة جبذته، فقال: يامحمد. . أعطنى من مال الله الذى عندك، فالتفت إليه فضحك ثم أمر له بعطاء».

ب ـ يروى البخارى ومسلم عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أنه قال: حدثنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوماً ثم قام فقمنا، فنظرت إلى أعرابى قد أدركه فجبذه بردائه فحمر رقبته، وكان رداؤه ـ صلى الله عليه وسلم ـ خشنا فالتفت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال له الأعرابى: احمل لى على بعيرى هذين، فإنك لا تحمل لى من مالك ولا من مال أبيك. . فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ: **«لا.. وأستغفر الله ـ كررها ثلاثا ـ لا أحمل لك حتى تقيدنى[1] من جبذتك التى جبذتنى»**. . فكل ذلك يقول له الأعرابى: والله لا أقيدكها، فلما سمعنا قول الأعرابى أقبلنا إليه سراعا، فالتفت إلينا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: **«عزمت على من سمع كلامى ألا يبرح مكانه حتى آذن له»**، ثم دعا رجلا، فقال له: **«احمل له على بعيريه هذين.. على بعير شعيرا، وعلى الآخر تمرا»**. ثم التفت إلينا ثم قال: **«انصرفوا على بركة الله..!!»**

(١) أى: تمكننى من أن أقتص منك بمثلها.

جـ ـ يروى البخارى ومسلم عن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال: لما كان يوم حنين آثر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ناسا فى القسمة: فأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل، وأعطى عيينة بن حصن مثل ذلك، وأعطى ناسا من أشراف العرب وآثرهم يومئذ فى القسمة(١)، فقال والله إن هذه قسمة ما عُدِلَ فيها وما أريد فيها وجهُ الله، فقلت: والله لأخبرن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأتيته فأخبرته بما قال فتغير وجهه حتى كان كالصِّرْف(٢)، ثم قال: **«فمن يعدل إذا لم يعدل اللهُ ورسوله..؟، ثم قال: «يرحم الله موسي.. قد أوذي بأكثر من هذا فصبر..!!»**

أرأيت معى إلى أى حد بلغ حلمه ـ صلى الله عليه وسلم ..؟! لقد أُوذى إيذاء كثيرا، مرات عديدة بالفعل، ومرات أكثر بالقول، وكل مرة منها كان لها وقع قاس بل بالغ فى القسوة على النفس، لكنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى كل مرة ـ مهما كان وقعها على نفسه ـ يقابل الإساءة بالإحسان، وبصبر جميل..!!

---

(١) ما فعل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذلك إلا تألفا لقلوب هؤلاء فقد كانوا يحتاجون إلى ما يثبت إيمانهم.

(٢) الصِّرف: صبغ أحمر.

ويشير عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ إلى هذا السلوك الذى لم ولن يضارعه سلوك إنسان ما . . فيقول فى كلامه عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «بأبى أنت وأمى يارسول الله . . ! لقد دعا نوح على قومه فقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾(١) ولو دعوت علينا مثلها لهلكنا من عند آخرنا . فقد وطئ ظهرك، وأدمى وجهك، وكسرت رَبَاعِيَتُك(٢)، فأبيت أن تقول إلا خيرا، فقلت: اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون . . !(٣)»

يقول القاضى عياض تعقيبا على حديث عمر ـ رضى الله عنه ـ: انظر هذا القول من جماع الفضل، ودرجات الإحسان، وحسن الخلق، وكرم النفس، وغاية الصبر والحلم، إذ لم يقتصر ـ صلى الله عليه وسلم ـ على السكوت عنهم حتى عفا عنهم، ثم أشفق عليهم ورحمهم، ودعا وشفع لهم، فقال: «اغفر أو اهد»، ثم أظهر سبب الشفقة والرحمة بقوله: «لقومى»، ثم اعتذر بجهلهم، فقال: «فإنهم لا يعلمون(٣) . . !»

---

(١) سورة نوح. ٢٦.
(٢) هى السِّنَّةُ التى بين الناب والثَّنِيَّتَيْنِ.
(٣) الشفاء للقاضى عياض.

### أ ـ أثر حلمه صلي الله عليه وسلم:

لقد كان لحلمه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أثر عظيم فى نشر دعوته، ودخول الناس دينه الذى يدعو إليه.. والحق الذى لا مرية فيه.. أن الإسلام لم ينتشر بحد السيف، وما دخل الناس فى دين الله أفواجا بدافع الخوف من رسول الله، أو الرهبة من سيوف أصحابه، كما يزعم ذلك بعض المضللين من المستشرقين، والمغرضين من أعداء الإسلام الحنيف ودعوته.. وإنما انتشر الإسلام بقوة إقناعه، ووضوح حجته، ونصاعة مبادئه، وسماحة تعاليمه.. انتشر كذلك بعظمة أخلاق الداعية العظيم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولين جانبه، وجامِّ تواضعه.. روى الحاكم عن زيد بن سعنة ـ وهو أجل أحبار اليهود الذين أسلموا ـ أنه قال: لم يبق من علامات النبوة شئ إلا وقد عرفته فى وجه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين نظرت إليه إلا اثنتين لم أخبرهما منه.. أن يسبق حلمه جهله، ولا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلما، فكنت أتلطف لأن أخالطه فأعرف حلمه وجهله، فابتعت منه تمرا إلى أجل، فلما كان قبل محل الأجل بيومين أو ثلاثة أتيته فأخذت بمجامع قميصه وردائه، ونظرت إليه بوجه غليظ، ثم قلت: ألا تقضيني يامحمد حقى..؟ فوالله إنكم يابنى

عبد المطلب مطل.. فقال عمر: أى عدو الله..! أتقول لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما أسمع..؟؟ فوالله لو ما أحاذر فوته لضربت بسيفى رأسك.

ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ينظر إلى عمر فى تؤدة وسكون ثم تبسَّمَ، وقال: **«أنا وهو أحوج إلي غير هذا.. أن تأمرني بحسن الأداء، وتأمره بحسن التِّباعة(١) .. اذهب ياعمر فاقضه حقه وزده عشرين صاعا من تمر مكان ما روَّعته».**

فقلت: ما هذا..؟ قال عمر: أمرنى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن أزيدك مكان منازعتك، فقلت: أتعرفنى ياعمر..؟ قال: لا.. فمن أنت..؟ قلت: أنا زيد بن سعنة، قال: الحبر..؟؟ قلت: الحبر. قال: فما دعاك أن تفعل برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مافعلت..؟ وتقول له ما قلت..؟، قلت: ياعمر.. إنه لم يبق من علامات النبوة شئ إلا وقد عرفته فى وجه محمد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين نظرت إليه إلا اثنتين لم أخبرهما منه: أن يسبق حلمه جهله، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلما، فقد اختبرته منه، فأشهدك ياعمر أنى رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا، وأشهدك أن شطر مالى لله ـ

(١) أى: الطلب.

فإنى أكثرها مالا ـ صدقة على أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال عمر: أو على بعضهم فإنك لاتسعهم كلهم، قلت: أو على بعضهم، قال: فرجع عمر وزيد بن سعنة إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال زيد: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله، فآمن به وصدقه وبايعه وشهد معه مشاهد كثيرة.

واضح من هذه القصة أن الرجل لم يدخل الإسلام خوفا من السيوف، أو هروبا من القتل، وإنما دخله تأثرا بخلق محمد العظيم ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد كان لحلمه من الأثر ماليس للسيف، حتى إن الأعرابى الجلف كان يقدم عليه من البادية، فيجلس إليه بعض الوقت، وهو أشد الناس عليه حقدا، وأكثرهم له عداوة، وأحرصهم على النيل منه.. فلم يقم من مجلسه ذلك إلا وهو أشد الناس حبا له ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأحرصهم على التضحية بنفسه وماله بل وبكل ما يملك من أجله ومن أجل دعوته.. لم يغدق عليه محمد مالا، ولم يمنه الأمانى.. بل إنه كان يعلم علم اليقين أنه بإسلامه هذا سيكون هدفا لأعداء محمد ودعوته، وما أكثرهم حينذاك.. لم يكن هذا إلا أثرا من آثار خلقه العظيم ـ صلوات الله وسلامه عليه..!

## ب ـ تواضعه صلي الله عليه وسلم:

لم يع التاريخ فى أى فصل من فصوله أروع ولا أعظم من تواضعه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لقد كان يمثل حاكم الأمة، ورئيس الدولة، وإن كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ أجل من أن ينعت برئيس، وأعظم من أن يوصف بحاكم، ومع هذا.. فقد كانت علاقته بمن حوله من الأصحاب والأتباع علاقة الأخ بأخيه.. أو الصاحب بصاحبه.. علاقة الند بقرينه.. كان يجالس فقيرهم، ويعود مريضهم، ويعين من هو فى حاجة إلى عونه، ويواسيهم فى مصابهم، ويشاركهم أفراحهم.. فإذا اجتمعوا لنفاذ أمر ما كانت المساواة التامة ترفرف عليهم.. يفعل ـ صلى الله عليه وسلم ـ مثلما يفعل أقلهم، ويتحمل من المشاق مثلما يتحمل سائرهم، ولايتميز عنهم فى أمر من الأمور.. روى أنه كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى سفر، فأمر أصحابه بإصلاح شاة، فقال رجل: يارسول الله.. عليَّ ذبحها، وقال آخر: عليَّ سلخها، وقال ثالث: عليَّ طبخها، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: **«وعليَّ جمع الحطب»**.. فقالوا: يارسول الله.. نحن نكفيك العمل. فقال: **«علمت أنكم تكفونني العمل.. ولكن أكره أن أتميز عليكم.. وإن الله يكره من عبده أن يراه متميزا بين أصحابه..!!»**.

هانحن أولاء.. نرى أن الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ قد شارك أصحابه فى إعداد الطعام، ولم يتميز عنهم فى شئ ما.. بل إننا نراه يختار أشق مراحل العمل، ويتحمل أصعب الأمور، ويعجب أصحابه من سلوكه هذا المتناهى فى باب التواضع، ويقولون له: كيف تكون سيدنا وعظيمنا وتفعل مثلما نفعل تماما..؟ إننا نتحمل عنك كل شئ.. نحن نكفيك العمل..! ولكنه ـ وهو العظيم حقا ـ يأبى إلا أن يكون مثلهم.. بل يضع دستورا لأتباعه من بعده فى المساواة فيقول: **«إن الله يكره من عبده أن يراه متميزا بين أصحابه»**.

لقد كان من كمال تواضعه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ماروه الإمام أحمد والبيهقى: «أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ خير بين أن يكون نبيا ملكا، أو نبيا عبدا فاختار أن يكون نبيا عبدا، فقال له إسرافيل عند ذلك: فإن الله قد أعطاك بما تواضعت له.. أنك سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من تنشق عنه الأرض، وأول شافع».

ومن تواضعه.. تأكيده الدائم على عبوديته لله ـ سبحانه وتعالى ـ وتحذير أمته من أن ترفع قدره عن قدر البشرية قيد أنملة.. يروى الإمام أحمد عن عمر ـ رضى الله عنه ـ أن

رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: **«لاتطروني[1] كما أطرت النصاري عيسي بن مريم - عليه السلام - فإنما أنا عبد الله ورسوله»**.

وكثيرا ماكان ينهى أصحابه عن مناداته ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما يشعر بتعظيمه، ورفع قدره فوق قدرهم ـ وإن كان هو صلوات الله وسلامه عليه ـ سيد الثقلين، وإمام الأنبياء، وخاتم المرسلين، وحبيب رب العالمين... يروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ أن رجلا قال للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ: ياسيدنا ويا خيرنا وابن خيرنا، فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ: **«أيها الناس.. قولوا بقولكم - أي: بما تعرفون فيّ كقولكم في التشهد: وأشهد أن محمدا عبده ورسوله - ولا يستهوينكم الشيطان.. أنا محمد بن عبد الله، ورسوله.. والله ما أحب أن ترفعوني فوق مارفعني الله عز وجل»**.

كما كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ ينهاهم عن كل سلوك ينم عن تكريمه أو تعظيمه.. روى أبو داود عن أبى أمامة الباهلى ـ رضى الله عنه ـ أنه قال: خرج علينا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ متوكئا على عصا، فقمنا له تعظيما وتكريما، فقال: **«لاتقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضا،**

(١) لا تمدحونى ولا تعظمونى.

ثم قال: «**إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد**».

وتواضع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يكن مجرد تظاهر بالتواضع بل كان سجية من سجاياه الحميدة، وغريزة من غرائزه الطيبة القويمة.. كان تواضعا مع الناس.. ومع العبيد والخدم.. ومع أهله فى بيته.. يروى الإمام أحمد أن عائشة ـ رضى الله عنها ـ سئلت: ماكان يصنع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى بيته..؟؟، فقالت: «كما يصنع أحدكم: يخصف نعله، ويخيط ثوبه. وقالت مرة: كان يكون فى مهنة أهله».. ويروى الإمام أحمد عن أنس ـ رضى الله عنه ـ أنه قال: «إن كانت الأمة لتأخذ بيد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فتنطلق به فى حاجتها».

ومن كمال تواضعه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه كان يركب الحمار مع قدرته على ركوب الفرس والبغل والناقة، وكان يردف[1] خلفه، ويعود المساكين، ويجالس الفقراء، ويجيب دعوة العبد، ويجلس بين أصحابه مختلطا بهم، بل ويجلس حيث انتهى به المجلس.[2]

---

(١) يركب البعض وراءه على الدابة.

(٢) شرح الشفا للخفاجى المصرى.

## جـ ـ كرمه وسخاؤه صلى الله عليه وسلم:

لقد كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ أجود بالخير من الريح المرسلة، يعطى عطاء من لا يخشى الفقر، يؤثر غيره على نفسه وآل بيته، فيعطى ولو كان فى أمس الحاجة إلى ما أعطى.. يروى البخارى ومسلم عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أنه قال: **«كان النبي ـ صلي الله عليه وسلم ـ أجود الناس بالخير، وأجود ما كان في شهر رمضان، وكان إذا لقيه جبريل ـ عليه السلام ـ أجود بالخير من الريح المرسلة»**.

جاء فى القرطبى والبيضاوى.. عن جابر ـ رضى الله عنه ـ أنه قال: بينا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ جالس أتاه صبى، فقال: إن أمى تستكسيك درعا، فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ: **«من ساعة إلي ساعة فعد إلينا»** فذهب إلى أمه فقالت: قل له: إن أمى تستكسيك الدرع الذى عليك، فدخل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ داره، ونزع قميصه وأعطاه إياه، وقعد عريانا، وأذن بلال، وانتظروه للصلاة فلم يخرج، فأنزل الله تعالى قوله:

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾(١)

(١) سورة الإسراء: ٢٩.

ثم سلاه بقوله:

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾[1].

هكذا.. كان كرم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا حدود له.. وكان لا يبارى في الجود والسخاء.. كانت هذه حاله حتى قبل أن يبعث.. تقول أم المؤمنين خديجة ـ رضى الله عنها ـ له يوم بعثته: **«والله لا يخزيك الله أبدا.. إنك لتصل الرحم.. وتصدق الحديث.. وتحمل الكَلَّ**[2]**، وتكسب المعدوم**[3]**، وتقري**[4] **الضيف، وتعين علي نوائب الحق»**[5].

وكم كان كرمه يكلفه الكثير من الجهد والمشقة..! إذ كان لايرد سائلا بدون عطاء، حتى ولو لم يكن عنده شئ فإنه يقترض له ويعطيه، أو يطلب من السائل أن يبتاع ما يريد من تجار المدينة على أن يدفع ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثمن ما يشترى.. فلقد جاءه رجل فسأله، فقال: **«ماعندي شئ.. ولكن ابتع عليَّ، فإذا جاءنا شئ قضيناه»** فقال له عمر ـ رضى الله

(١) سورة الإسراء: ٣٠.

(٢) الضعيف.

(٣) تعطى الفقير.

(٤) تكرم الضيف.

(٥) سيرة ابن هشام.

عنه ـ: ما كلفك الله مالا تقدر عليه، فكره النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذلك، فقال له رجل من الأنصار: يارسول الله.. أنفق ولا تخش من ذى العرش إقلالا، فتبسم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعُرف البِشر فى وجهه، وقال: «بهذا أمرت»[1].

## * أثر كرمه صلى الله عليه وسلم:

وكما كان لحلمه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أثر عظيم فى دخول الناس فى دين الله ـ عز وجل ـ فقد كان لكرمه ووده وسخائه جاذبية قوية، جذبت الكثير والكثير إلى الإسلام الحنيف، وإلى الداعية العظيم نفسه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وإليك بعض هذه الصور الدالة على ذلك:

أ ـ يروى مسلم عن أنس ـ رضى الله عنه ـ: «أن رجلا سأله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأعطاه غنما بين جبلين، فرجع إلى بلده... وروى لقومه ما رآه من سخاء رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم.. وقال لهم: أسلموا.. فإن محمدا يعطى عطاء من لا يخشى الفقر..!!

ب ـ يروى الإمام أحمد عن صفوان بن أمية ـ رضى الله عنه ـ أنه قال: «أعطانى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

(١) رواه الترمذى فى الشمائل.

يوم حنين وإنه لأبغض الناس إلىَّ، فما زال يعطينى حتى صار وإنه لأحبّ الناس إلىَّ».

جـ ـ يروى الإمام أحمد عن أنس ـ رضى الله عنه ـ أنه قال: «إن كان الرجل ليأتى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما يريد إلا أن يصيب عرضا من الدنيا = أو قال: دنيا يصيبها = فما يمسى من يومه ذلك حتى يكون دينه أحب إليه = أو قال: أكبر عليه = من الدنيا وما فيها..!».

***

وإذا كانت أعلى مراتب الجود هى: أن يؤثر الإنسان على نفسه وأولاده وأهله.. فقد بلغ الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى ذلك.. المنزلة السامية، التى لم يبلغها بشر كائنا من كان.. يروى الإمام أحمد عن سهل بن سعد الساعدى ـ رضى الله عنه ـ أن امرأة أتت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ببردة منسوجة فيها حاشيتاها، قال سهل: هل تدرون ما البردة..؟، قالوا: نعم.. الشملة، قال: نعم، فقالت: يارسول الله.. نسجت هذه بيدى فجئت بها لأكسوكها، فأخذها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ محتاجا إليها، فخرج علينا وإنها لإزاره، فجسها فلان = قيل: إنه سعد بن أبى وقاص = فقال: ما أحسن هذه البردة.. أكسنيها يارسول

الله..!، قال: نعم. فلما دخل ـ صلى الله عليه وسلم ـ طواها وأرسل بها إليه، فقال له القوم: والله ماأحسنت، كُسِيَها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ محتاجا إليها، ثم سألته إياها = وقد علمت أنه لا يرد سائلا = فقال: والله إنى ما سألته لألبسها، ولكن سألته إياها لتكون كفنى يوم أموت.. قال سهل: فكانت كفنه يوم مات».

***

هذه نماذج ثلاثة من أخلاقه ضربناها مثلا، لنرى على ضوئها.. كم كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما وصفه ربه على خلق عظيم..!!

**وعــــن:**

## ٥ ـ حفظ الله له ورعايته صلي الله عليه وسلم

## يقــــول:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾(١)

يخاطب رب العالمين ـ عز وجل ـ فى هذا القول الكريم نبيه ورسوله وصفوته من خلقه محمدا ـ صلى الله عليه وسلـم ـ آمرا إياه أن يبلغ ما أوحاه إليه من شرعه القويم، وهديه الحكيم إلى الناس كافة أبيضهم وأسودهم، عظيمهم وحقيرهم، العربى منهم والأعجمى. . وألا يكتم شيئا ما مما أوحاه إليه. . وألا يخص إنسانا دون غيره.

---

(١) سورة المائدة: ٦٧.

ثم يبين ـ سبحانه وتعالى ـ أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ إن كتم شيئا، أوخص إنسانا دون غيره = وحاشاه صلوات وسلامه عليه أن يفعل ذلك = فإنه حينئذ لا يكون مبلغا رسالة ربه على الوجه الأكمل وكما ينبغى له أن يفعل.. يروى مسلم عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أنها قالت: « من حدثك أن محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ كتم شيئا من الوحى فقد كذب، والله تعالى يقول:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ ﴾(١)

وقبح الله الروافض حيث قالوا: إنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كتم شيئا مما أوحى الله إليه كان بالناس حاجة إليه».

ويقول القرطبى: دلت الآية على رد قول من قال: إن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كتم شيئا من أمر الدين تقيَّةً(٢)، وعلى بطلانه، وهم الرافضة، ودلت على أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يسر إلى أحد شيئا من أمر الدين؛ لأن المعنى ـ بلغ جميع ما أنزل إليك ـ ظاهر، ولولا هذا ما كان فى قوله ـ عز وجل ـ: ﴿ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ فائدة. اهـ.

****

(١) سورة المائدة: ٦٧.

(٢) تقية: اتقاء لأذى الناس واجتنابا له.

ثم يخبر ـ سبحانه وتعالى ـ حبيبه محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأنه سيكف أيدى الناس عنه، وسيرد كيد أعداء الإسلام إلى نحورهم، فلا يتخوف من بطش الطغاة المتكبرين، أو عدوان الكفار المتحمسين لقتله، الحريصين على التخلص منه.. ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ ﴾(١) أى: يحفظك من أذاهم، فلا تمتد إليك يد بسوء، أو يصل إليك أحد منهم فيتمكن منك ويقضى عليك.. كلا.. كلا..! إنه ـ سبحانه وتعالى ـ يحرسك ويرعاك ويحفظك، فلا تبتئس لهذه العداوات الكثيرة، ولا تهتم بكثرة الشانئين لك، الكارهين لدعوتك.. يروى مسلم فى صحيحه بسنده عن أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ أنها قالت: سهر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مَقْدَمُه(٢) من المدينة ليلة، فقال: «ليت رجلا صالحا من أصحابى يحرسنى الليلة..؟؟!»، قالت: فبينا نحن كذلك سمعنا خشخشة(٣) سلاح، فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «من هذا..؟» قال: سعد بن أبى وقاص..، فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «ماجاء بك..؟» فقال: وقع فى نفسى خوف على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فجئت أحرسه، فدعا له رسول الله ـ

(١) سورة المائدة: ٦٧.

(٢) فى أول قدومه إلى المدينة.

(٣) صوت سلاح يصطدم بعضه ببعض.

صلى الله عليه وسلم ـ ثم نام. . ونزلت هذه الآية، فأخرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رأسه من قبة أدم، وقال: «**انصرفوا.. أيها الناس، فقد عصمنى الله**». . قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذلك؛ لأن حذيفة كان قد انضم إلى سعد فى غير رواية مسلم.

## * عداوات شرسة تحيط به صلى الله عليه وسلم:

يحدثنا التاريخ أنه مامن نبى من الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ إلا وعاداه قومه وحاولوا القضاء عليه وعلى دعوته. . فها هو ذا خليل الرحمن إبراهيم ـ عليه السلام ـ يلقى به أعداؤه فى النار المشتعلة محاولين موته حرقا، لكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ نجاه من الهلاك، وخرج من نارهم سليما معافى. . وهذا روح الله وكلمته عيسى بن مريم يحاول أعداؤه من اليهود صلبه وقتله، فيلقى الله ـ سبحانه ـ شبهه على مَن وشى به، فيصلب هو ويقتل، ويرفع عيسى ـ عليه لسلام ـ إلى السماء. . !

وكثيرا ما استطاع أعداء الأنبياء النيل منهم، والقضاء عليهم، وبنو إسرائيل ـ اليهود ـ ضربوا الرقم القياسى فى قتل أنبيائهم، حتى استحقوا بجدارة لعنة الله ـ سبحانه ـ واستوجبوا بأفعالهم الذميمة غضبه وانتقامه، واستحقوا أن يوسموا بسمة: قتلة الأنبياء. . !، مصداقا لقوله ـ عز وجل ـ:

﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾[1].

وبمقدار ماكان لرسول الله محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من منزلة ومكانة ـ وبمقدار عموم رسالته وشمولها.. وكونها ناسخة للأديان كلها.. وممتدة إلى آخر الدهر..! بمقدار ماكان له ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أعداء..!!

لقد كانت عداوة كل نبى من الأنبياء قبله من قومه خاصة.. أما هو.. فقد تعددت العداوات بالنسبة إليه.. لقد عاداه قومه الأقربون والأبعدون.. وعاداه أهل الكتابين قبله.. اليهود والنصارى.. وعاداه الوثنيون من عبدة النار والأوثان.. وكان المتنفس الطبيعى لهذه العداوات الشرسة كلها هو قتله والتخلص منه، ليقضوا بالتالى على دعوته.

وكان اليهود أشد الناس عداوة لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأحرصهم على قتله والتخلص منه، فمنذ أن بزغ كوكب التوحيد، وأشرقت شمس محمد فى رحاب مكة، وهم يحاولون قتله والقضاء عليه.. حاولوا ذلك وهو طفل صغير.. وحاولوه وهو نبى مرسل.. لكنهم لم

(١) سورة البقرة: ٦١.

ينجحوا فى شئ من ذلك.. إذ سبق القضاء بعصمته من الناس، مصداقا لقوله ـ عز وجل ـ: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾[1].

أجل..! كان بنو إسرائيل قتلة الأنبياء..! فقد تطاولوا على رسل الله وأنبيائه، وسفكوا دماءهم الزكية. قتلوا نبى الله شعياء.. ونبى الله زكريا.. أما نبى الله يحيى فقدكان دمه الزكى الطاهر هدية رخيصة لفتاة يهودية عاهرة فاتنة، اسمها: استير[2]..! قدمها ملك مغرور فاجر ليحظى برضاها ويفوز بليلة حمراء معها..!!

لقد كان دم نبى الله يحيى ـ عليه السلام ـ عربون فجور وفسق، جرّ على بنى إسرائيل الخراب والدمار، وصُب عليهم من أجله غضب الله ونقمته.. حيث جعل ـ سبحانه ـ الدم الزكى يفور ويفور ولم يهدأ حتى قُتِلَ عليه من بنى إسرائيل عشرات الآلاف.. وغير هؤلاء الأنبياء الكرام الذين أُريقت دماؤهم الزكية الطاهرة.. كثير وكثير..!!

وكما تعرض الأنبياء والمرسلون للقتل، تعرض كذلك له سيدنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مرات ومرات،

---

(١) سورة المائدة ٦٧.

(٢) ومع فسقها وفجورها رفعها اليهود إلى مصاف القديسين، ولهم عيد يسمونه باسمها.

لقد حاول المشركون واليهود قتله والتخلص منه، حاولوا ذلك مجتمعين، وحاولوه منفردين.. لكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ كتب له السلامة والعافية والنجاة فى كل مرة؛ لأنه ـ سبحانه وتعالى ـ تكفل برعايته، وحمايته، وحفظه، وعصمته من الناس..!

***

ونستطيع أن نتبين صدق ذلك على ضوء ما يأتى من أحداث:

١ ـ اجتمعت كلمة كفار قريش على قتله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإراقة دمه الشريف بيد شبابهم، حيث يجتمعون عليه حين خروجه لصلاة الفجر فيضربونه جميعا ضربة رجل واحد.. لكنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ يخرج من بينهم وهم لا يشعرون(١)..!

٢ ـ تملك الغيظ أهل مكة لخيبتهم فى القضاء عليه أمام بيته، ولخروجه من بينهم.. فراحوا يبحثون عنه فى كل مكان.. وأحاطوا بالغار الذى يختبئ فيه، ولو مدَّ واحد منهم يده بسيفه داخل الغار لناله وصاحبه.. لكن الله ـ تعالى ـ أيده بجنود لم يرها ولم يعرفها أحد من الناس...!

(١) سيرة ابن هشام بتصرف وإيجاز.

٣ ـ تعقبه سراقة بن مالك طمعا فى نيل جُعل قريش السخى «مائة ناقة». . حتى إذا ما كان منه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قاب قوسين أو أدنى. . رُدَّ على عقبه مقهورا عاجزا. . !

٤ ـ ذهب ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ إلى حى بنى النضير، ليستعين بهم على دفع دية رجلين من قريش. . فانتهزوها فرصة وأجلسوه ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو ومن معه تحت جدار، ثم صعد منهم جماعة فوق سطحه ليلقوا عليه صخرة عظيمة فيقتلوه ويتخلصوا منه. . لكن الله ـ سبحانه ـ يوحى إليه بمكرهم وتدبيرهم. . ويأمره بالانصراف من هذا المكان. . فنهض[1] ونجا. . !

٥ ـ أهدت إليه يهودية شاة مسمومة. . فرفع الذراع لينهس[2] منها. . فأنطقها الله ـ سبحانه ـ فقالت: «لا تأكل منى يامحمد فإنى مسمومة. . !».

٦ ـ رقد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى عودته من غزوة ذات الرقاع تحت شجرة، وعلق سيفه عليها، فجاء أعرابى كان يتعقبه، واخترط السيف، ورفعه، وقال: من يمنعك منى

(١) المصدر السابق.

(٢) نَهَسَ مثل نَهَشَ لفظا ومعنى.

يامحمد . . ؟ فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «الله . . !» فوقع السيف من يده[1] . . !

هذه الأحداث التى سجلها التاريخ وغيرها . . خير شاهد على صدق ما جاء فى قوله تعالى:

﴿ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ ﴾[2] . . !

---

(١) المصدر السابق.

(٢) سورة المائدة ٦٧.

وعـــن:

## ٦ ـ عبادته.. صلى الله عليه وسلم...

# يقـــول:

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾(١)

كان المشركون يؤذون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالفعل وبالقول.. فكانت أيديهم الآثمة تمتد إليه بالأذى والسوء.. يضعون الشوك والقاذورات فى طريقه وهو خارج لصلاته بالمسجد الحرام.. ويلقون القاذورات على ظهره وهو ساجد عند الكعبة.. وربما تجرأ السفهاء منهم فألقوا التراب على رأسه ووجهه..!!

---

(١) سورة الحجر من ٩٧: ٩٩.

أما ألسنتهم القذرة . . فكانت تتطاول على مقامه العظيم . . وتتقول عليه بما ليس فيه . . فهم يهزأون به . . ويسخرون منه . . فإذا رأوه قادما ، قالوا : هذا ابن أبى كبشة الذى يتكلم من السماء . . ثم يرمونه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما هو منه براء . . فيقول قائلهم : إنه ساحر . . كاهن . . كذاب . . إلى آخر هذه القائمة المفتراة ، والتى فندها القرآن الكريم ، ونفاها نفيا قاطعا فى مثل قول الله ـ عز وجل ـ :

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴾(١) .

وكان لذلك وقع أليم على نفسه الصادقة الصافية ، وحسه المرهف ، وقلبه المفعم بالحب لهم جميعا ، وبالحرص على هدايتهم ، وإيصال الخير الدنيوى والأخروى إلى كل واحد منهم . . فأمره رب العالمين ـ سبحانه وتعالى ـ أن يتغلب على هذه المتاعب النفسية بالإكثار من ذكره ـ عز وجل ـ والإقبال

(١) سورة الحاقة ، من ٣٨ ، ٤٧ .

على عبادته، وأن يداوم على هذه الحالة حتى يأتيه «اليقين»(١) . . . ففى ذكره ـ سبحانه . . اطمئنان للقلوب . . وفى عبادته . . أنجح علاج لجراح النفوس . . !

وصدق الله العظيم . . ! فلقد كان ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لا يجد سعادة نفسه، وحياة قلبه، ونعيم روحه، وقرة عينه فى شئ مثلما يجده فى موقف واحد من مواقف عبادته لله ـ سبحانه وتعالى ـ يقف بين يديه فى ليل أو نهار . . بعد طول عناء . . أو تعرض لأى نوع من الإيذاء . . يتضرع إليه . . ويدعوه ويناجيه فيجد على الفور راحة قلبه . . وهدوء نفسه . . !

لهذا . . يقول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما رواه الإمام أحمد عن أنس ـ رضى الله عنه ـ: **«حبب إليَّ من دنياكم الطيب والنساء.. وجعلت قرة عيني في الصلاة»**.

وكثيرا ما كان يقول لبلال ـ رضى الله عنه ـ: **«قم يابلال فأرحنا بالصلاة..!!»**(٢) . . أجل . . ! لقد كان ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ إذا حزبه أمر لجأ إلى الصلاة . . فيجد فيها طب فؤاده . وعلاج نفسه، وراحة وهدوء قلبه . . !! .

---

(١) قيل : هو الموت، وقيل: غَير ذلك .

(٢) رواه أحمد ـ الفتح الربانى .

## * تعبده صلى الله عليه وسلم:

الغاية من خلق الإنسان أن يكون عابدا لله ـ عز وجل ـ ولقد نطق بذلك كتاب الله ـ سبحانه ـ:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾(1).

وأسمى مايصبو إليه المؤمن الكامل أن يكون عبدا لله، وحينما يصل إلى هذه المنزلة السامية الرفيعة، منزلة العبودية الخالصة لله.. يكون حينئذ قد تحرر من كل شئ.. تحرر من الكفر والشرك.. تحرر من المذلة والخضوع والخوف إلا لله ومن الله..! تحرر أيضا من سيطرة الدنيا، وفتنة المال والمنصب والجاه..!

والقرآن الكريم حينما ذكر الأنبياء والمرسلين ـ صلوات ربى وسلامه عليهم أجمعين ـ فى معرض الثناء والمدح.. إنما وصفهم بأنبل الصفات وأكرمها.. بالعبودية الخالصة لله ـ عز وجل ـ فها هو ذا كتاب الله ـ سبحانه وتعالى. يقول عن داود ـ عليه السلام ـ:

---

(1) سورة الذاريات، من ٥٦ ـ ٥٨.

(2) رواه أحمد ـ الفتح الربانى.

﴿ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾(١).

وعن سليمان ـ عليه السلام ـ:

﴿ وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَۚ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾(٢).

وعن أيوب ـ عليه السلام ـ:

﴿ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴾(٣).

وعن سيدنا إبراهيم وإسحق ويعقوب ـ عليهم السلام ـ:

﴿ وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾(٤).

وهكذا لم يقل ـ سبحانه وتعالى ـ: واذكر رسلنا أو أنبياءنا، وإنما وصفهم فى هذا الموطن.. موطن المدح والثناء بأنهم عباد له جل علاه..!

وعن إمام الأنبياء وخاتم المرسلين، يقول ـ سبحانه ـ:

---

(١) سورة ص: ١٧

(٢) سورة ص: ٣٠.

(٣) سورة ص: ٤١.

(٤) سورة ص: ٤٥.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ﴾(١).

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾(٢).

فغاية المؤمن ـ إذن ـ أن يكون عبدا خالصا لخالقه وبارئه ـ عز وجل ـ والذى لاريب فيه.. أن العبادة هى طريق المؤمن إلى تحقيق هذه الغاية السامية النبيلة.. لهذا.. كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعبد ربه ـ عز وجل ـ على كل حال من أحواله؛ ليحقق تلك الغاية العظيمة، التى ينشدها الخُلَّص من عباد الله.. فكثيرا ماكان يقوم الليل حتى تتورم قدماه، وتشفق عليه إحدى أمهات المؤمنين، وتناشده الرفق بنفسه، مخبرة إياه بأن الله ـ سبحانه ـ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فكان يجيبها بقوله: «**أفلا أكون عبدا شكورا**(٣)..؟» وتقول عنه أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ فيما رواه أحمد: «**كان رسول الله ـ صلي الله عليه وسلم ـ في مهنة أهله، فإذا حضرت الصلاة خرج إلي الصلاة، وكأنه لا يعرفنا ولا نعرفه**».

(١) سورة الكهف: ١.

(٢) سورة الأسراء : ١.

(٣) الكرمانى على البخارى ج ٦: صـ ١٨٦.

وكم كان حنينه إلى عبادة ربه ـ سبحانه وتعالى ـ يبعده عن ملذات الحياة المباحة، وطيباتها المشروعة، ولين الفراش ودفء الزوجة الأثيرة عنده المحبوبة لديه.. عن عطاء قال: دخلت أنا وعبد الله بن عمر وعبيد بن عمر، على عائشة ـ رضى الله عنها ـ فقال ابن عمر: حدثينى بأعجب ما رأيت من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فبكت، ثم قالت: كل أمره كان عجبا..!!

أتانى فى ليلتى حتى إذا دخل معى فى لحافى وألصق جلده بجلدى، فقال لى: «**ياعائشة.. أتأذنين لي في عبادة ربى ـ عز وجل ـ؟**» فقلت: إنى لأحب قربك، وأحب هواك[1].. قالت: فقام إلى قربة فى البيت فلم يكثر صب الماء، ثم قام فقرأ القرآن.. ثم بكى حتى رأيت دموعه بلت حُجْزَتَه[2]، ثم اتكأ على جنبه الأيمن، ثم وضع يده اليمنى تحت خده، ثم بكى حتى رأيت دموعه قد بلت الأرض.. فجاء بلال يؤذنه بالصلاة فوجده يبكى..!!. فقال: يارسول.. أتبكى وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وماتأخر..؟ فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ: ﴿ **أفلا أكون عبدا شكورا..؟؟**»

(١) أى: أحب قربك منى، وأحب ما تهواه.

(٢) الحجزة: معقد الإزار.

ثم قال: «ومالي لا أبكي.. وقد أنزل الله عليَّ الليلة:

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾(١). الآيات، ثم قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «ويل لمن قرأها ولم يتدبرها..!!»(٢).

وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقبل على عبادة ربه ـ عز وجل ـ في شغف وحب منقطع النظير، وكان شوقه إلى ربه، وشغفه إلى مناجاته ينسيه الجهد والتعب، فكان يطيل القيام والركوع والسجود بشكل لا يقوى عليه غيره من المسلمين الأشداء.. يقول حذيفة ـ رضى الله عنه ـ: «قمت مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذات ليلة فقرأ السبع الطوال فى سبع ركعات.. كان إذا رفع رأسه من الركوع، قال: «سمع الله لمن حمده»، ثم قال: «الحمد لله ذى الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة»، وكان ركوعه مثل قيامه، وسجوده مثل ركوعه، فانصرفت وقد كادت تنكسر رجلاى»(٢).

***

هذا.. وإن كان معنى العبادة عند البعض معنى ضيقا، ومفهومها مفهومًا محدودا، لا يتجاوز الصلاة، والصوم،

(١) الوفا بأحوال المصطفى جـ ٢ ص ٥٣٩.

(٢) ابن كثير جـ٣ ص ٥٨٣.

والزكاة.. الخ، فإن مفهوم العبادة عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان أعم وأشمل من هذا كله.. إن العبادة عنده تشمل جوانب الحياة كلها.. لقد كان يعبد ربه بالصلاة، كما يعبده ـ سبحانه ـ بالإحسان إلى الجار، وبالتودد إلى زوجاته، وببر من يحتاج إلى بره وعطفه، كما كان يعبده بتربية أبنائه وأحفاده، وبالجهاد فى سبيل الله؛ بل وبإماطة الأذى عن الطريق، وإدخال السرور على اليائس الحزين.. وفى الحقيقة.. هذه المعانى كلها تكوِّن معنى التعبد فى نظر الإسلام الحنيف..!!

# خاتمة

## واجبنا نحوه صلى الله عليه وسلم

* محبته صلى الله عليه وسلم.
* الاقتداء به صلى الله عليه وسلم.
* نصرة دينه صلى الله عليه وسلم.
* الإكثار من الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم.

**وعـــن:**

## ١ - وجوب محبته صلى الله عليه وسلم..

## يقـــول:

﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾(١).

لقد أوجب الله ـ تبارك وتعالى ـ حبه، وحب نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ على كل فرد من أفراد هذه الأمة. . وبين ـ سبحانه ـ أن حب المرء لله ولرسوله لن يكون كاملا إلا إذا كان هذا الحب مقدما على كل ما عداه. . مقدما على حبه

---

(١) سورة التوبة. ٢٤.

لأبيه، وابنه، وأخيه وزوجته، وعشيرته وهم قرابته الأدنون.. مقدما على المال الذى اكتسبه وملكه.. وعلى تجارة يخاف بوارها.. وعلى المسكن المترف المريح.. بل ومقدما على حب المرء لنفسه التى بين جنبيه.. روى البخارى بسنده عن عبد الله بن هشام - رضى الله عنه - قال: كنا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب، فقال له عمر: يارسول الله.. لأنت أحب إلىَّ من كل شئ إلا من نفسى.. فقال النبى - صلى الله عليه وسلم -: **«لا والذي نفسي بيده.. حتي أكون أحب إليك من نفسك..»** فقال عمر: فإنه الآن والله لأنت أحب إلىَّ من نفسى.. فقال النبى - صلى الله عليه وسلم -: **«الآن ياعمر..!»**.

ليس هناك فى الدنيا ما يغرى الإنسان بحبه.. ويملك عليه كل إحساسه.. ويتحكم فى غرائزه.. ويدير دفة مشاعره.. أكثر من هذه الأمور التى ذكرها رب العالمين - سبحانه وتعالى - فى هذه الآية الكريمة.. إنها بلا ريب أهم المهمات فى حياة كل فرد من بنى البشر، ومن أجلها يضحى.. ويشقى.. ويكد.. ويعرق.. ولها يبذل كل حبه.

أجل..! إن الإنسان.. كل إنسان.. يضحى من أجل الأب والابن والأخ والزوجة والعشيرة.. إلا من فقد النخوة

والمروءة..! والإنسان.. كل إنسان.. يبذل حياته، وينفق عافيته وصحته من أجْل المال، والتجارة، والبيت الحسن.. تلك طبيعة البشر جميعا، وهذه أخص خصائص الإنسان..!

لكن الله ـ تبارك وتعالى ـ فى هذه الآية الشريفة ـ يأمر نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن يعلن على أمته: أن من يؤثر شيئا من هذه الأمور على محبة الله ورسوله وعلى الجهاد فى سبيل الله ودينه.. فلينتظر انتقام الله وعقابه:

﴿ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾(١).

ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نفسه يؤكد هذا المعنى ويعمقه، فيما يرويه الشيخان: البخارى ومسلم عن أنس ـ رضى الله عنه ـ **إذ يقول: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان.. أن يكون الله ورسوله أحبٌ إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود إلي الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار».**

وينفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الإيمان عمن لا يتمكن حبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى قلبه حتى يغطى هذا الحب

---

(١) سورة التوبة: ٢٤.

على حبه لكل شئ، حتى ولو كان أقرب الأقرباء إليه، وأخص من يخصه.. إذ يقول: « **والذي نفسي بيده لايؤمن أحدكم حتي أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين**»[1].

## * صور من حب أصحابه له صلى الله عليه وسلم:

لقد ضرب الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ المثل الأعلى فى صادق حبهم لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان حبه يملك على أحدهم كل قلبه، وكان آثر عندهم من الوالد والولد والزوجة وكل متع الحياة مهما كانت جاذبيتها.. سئل على بن أبى طالب: كيف كان حبكم لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ..؟، فقال: كان رسول الله أحب إلينا من أموالنا وأولادنا وآبائنا وأمهاتنا، وأحب إلينا من الماء البارد على الظمأ[2]..!

وكان حبهم ـ رضى الله عنهم ـ له، يُضفى عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ هيبة فى عيونهم، ويحملهم على توقيره، واحترامه، وإجلاله، حتى إن أحدهم ما كان يستطيع أن ينظر إليه مهابة وإجلالا.. يروى مسلم عن عمرو بنِ العاص ـ رضى الله عنه ـ أنه قال: ما كان أحد أحب إلىَّ من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا أجل فى عينى منه، وما

(١) رواه البيهقى والحاكم.

(٢) رواه البيهقى.

كنت أطيق أن أملأ عينى منه إجلالا له حتى لو قبل لى صفه ما استطعت أن أصفه . . !

لقد امتاز حب الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ لرسولهم بصدق الإحساس نحوه، كان حبا مطبوعا لا مصطنعا، حبا يجعل أحدهم يتمنى فى قرارة نفسه أن يفتديه بكل غالٍ ونفيس، ولو كان الفداء روحه التى بين جنبيه . . روى البيهقى عن عروة ـ رضى الله عنه ـ أنه قال: لما أخرج أهل مكة زيد بن الدَّثَّنَّة ـ رضى الله عنه ـ وكان قد أسر يوم الرجيع ـ من الحرم ليَقتلوه، قال له أبو سفيان بن حرب وهو يومئذ مشرك: أنشدك بالله يازيد . . أتحب أن محمدا الآن عندنا مكانك نضرب عنقه . . وأنك فى أهلك . . ؟ فقال زيد: والله ما أحب أن محمدا فى مكانه الذى هو فيه مقيم تصيبه الشوكة ـ أى: أقل شئ من الأذى ـ وإنى جالس فى أهلى ـ سالم من الأذى ـ فقال أبو سفيان: ما رأيت أحدا من الناس يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا . . !

لقد كان حبا يملك على أحدهم كل إحساساته ومشاعره، فيجعله لا يقوى على البعد عنه ولو لبعض الوقت، دائم الشوق إلى رؤيته . . جاء فى القرطبى: إن ثوبان مولى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان شديد الحب له، قليل الصبر عنه، فأتاه ذات يوم وقد تغير لونه، ونحل جسمه يعرف الحزن فى وجهه، فقال له: **«ياثوبان.. ما غير لونك..؟»**، فقال: يارسول الله . . مابى ضر ولا وجع غير أنى إذا لم

أرك اشتقت إليك واستوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك.. ثم ذكرت الآخرة، وأخاف أن لا أراك هناك؛ لأنى عرفت أنك ترفع مع النبيين، وإنى إن دخلت الجنة كنت فى منزلة هى أدنى من منزلتك، وإن لم أدخل فذلك حين لا أراك أبدا، فأنزل الله قوله:

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾(١).

***

## * كيف نحبه صلى الله عليه وسلم..؟

لاريب.. أن فى هذه الأمثلة الحية.. وتلك النماذج المشرقة.. خير إجابة على هذا السؤال.. كيف نحب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم..؟؟

نحبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أكثر من كل شئ.. من المال.. والمنصب.. والجاه.. من الولد والزوجة.. من النفس والحياة.. من الدنيا بأسرها..!!

ولابد أن يكون لهذا الحب أثر فى سلوكنا، وصدى فى حياتنا.. هذا الأثر.. وذالك الصدى..هو:

(١) سورة النساء: ٦٩, ٧٠.

**وعـــــن:**

## ٢ ـ وجوب اتباعه والاقتداء به صلى الله عليه وسلم

# يقـــول:

أ ـ ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(١).

ب ـ ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾(٢).

لقد جعل رب العالمين الدليل على صدق محبته ـ سبحانه وتعالى ـ اتباع نبيه الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ ورتب على هذا الاتباع محبته ـ سبحانه ـ لعبده، ومغفرة ذنوبه، أى: رتب على اتباع رسول الله تحقيق السعادة فى الدارين: الأولى الآخرة.

---

(١) سورة آل عمران: ٣١.

(٢) سورة الأحزاب: ٢١.

وفى الآية الثانية بين ـ سبحانه وتعالى ـ أن مَن أراد النجاة فى الآخرة، ومن كان حريصا على رضا الله ـ عز وجل ـ فما عليه إلا أن يحسن الاقتداء بهذا النبى ـ صلى الله عليه وسلم. .

أجل. .! إن الخير كل الخير فى اتباع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى كل ما جاء به من عند رب العالمين ـ سبحانه ـ وإن السعادة فى حسن الاقتداء به. . فمن زعم أنه يحب الله أو يحب رسوله، وكان عمله وسلوكه يخالف هدى رب العالمين، وكان على النقيض من سنة إمام الأنبياء وخاتم المرسلين ـ فهو كاذب فى دعواه تلك، وكتاب الله ـ سبحانه ـ يكذبه:

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى ﴾(١).

ومن زعم أنه يحرص على رضا ربه ـ سبحانه ـ ويعمل للآخرة الباقية. . وكان عمله وسلوكه بعيداً كل البعد عما جاء به هذا النبى الكريم. . فهو كاذب. . وكتاب الله ـ سبحانه ـ يكذبه:

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ ﴾(٢).

---

(١) سورة آل عمران: ٣١.

(٢) سورة الأحزاب: ٢١.

إن اتباع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والاقتداء به آية على محبة العبد لله ولرسوله.. إنها ترجمة عملية لهذه المحبة، وأثر من آثارها.. وفضلا عن ذلك فالاتباع وحسن الاقتداء فرض ألزمنا به رب العالمين ـ سبحانه ـ وأوجبه علينا بهاتين الآيتين من سورة آل عمران، والأحزاب، وبقوله عز وجل:

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[1].

ويؤكد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذه القضية الهامة والخطيرة، فيبين في جلاء ووضوح أنه ليس بمؤمن من لا يحسن الاقتداء به، ومن تكون تصرفاته مخالفة تماما لسنته، ويكون في شئونه كلها أو بعضها نزّاعا[2] إلى غير هديه.. قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما رواه الترمذى وأبو داود: «**لا يؤمن أحدكم حتي يكون هواه تبعا لما جئت به**».

ثم.. هاهو ذا ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يدق لأمته ناقوس الخطر، ويشعل لنا الضوء الأحمر، ليثير انتباهنا، ويلفت نظرنا، ولنكون على بينة من أمرنا.. إذ يقول فيما يرويه مسلم عن أبى هريرة، فى حديث طويل، ومنه: «..

(١) سورة الحشر: ٧
(٢) نَزَعَ إلى كذا، أى اشتاق إليه.

**ألا ليذادن رجال عن حوضى كما يذاد البعير الضال.. أناديهم.. ألا هلُمّ..!، فيقال: إنهم بدلوا بعدك.. فأقول: سحقا.. سحقا..!!».**

إن النجاة يوم القيامة، وشرف الورود على الحوض، لن يكون إلا لمن أحسن الاقتداء بهذا النبى الكريم، وتمسك بالكتاب، واهتدى بالسنة الصحيحة..!

أما هؤلاء الذين يحدثون فى دين الله ـ سبحانه وتعالى ـ ماليس فيه، ويبتدعون ولا يتبعون، يعبدون الله حسب هواهم، ويُخضعون الدين لمصالحهم وأهوائهم، ليحققوا كسبا ماديا، أو يحافظوا على مغنم عاجل، أو منصب رفيع، أو منزلة اجتماعية، ويسترشدون بغير هدى ربهم ونبيهم.. هؤلاء سيطردون يوم القيامة من على موائد كرم الله ـ سبحانه وتعالى ـ وستغلق فى وجوههم أبواب رحمته، وسيبعدون عن حوضه ـ صلى الله عليه وسلم..!

أجل..! سيطردون كما يطرد البعير الضال.. فحينما يأتون مع الآتين بعد بعثهم، ليردوا الحوض مثلهم، تضربهم الملائكة كما يُضرب البعير الضال.. وتبعدهم عن الحوض الشريف.

ويراهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهم على تلك الحال المزرية، فيغضب لهم، ويناديهم: «أقبلوا..

أقبلوا..!»، ويخاطب الملائكة: «إنهم من أمتى» سمتهم واضحة على جبينهم.. فلِمَ تفعلون بهم ما أرى..؟ ولِمَ تضربونهم وتبعدونهم عن حوضى..؟!، وهم أحق الناس به.. وأحوجهم إلى مائه..؟!

ويأتيه الجواب من علام الغيوب.. رب العزة - تبارك وتعالى -: «إنك - يامحمد - لا تدرى ماأحدثوا بعدك.. إنهم غيروا وبدلوا» فيحزن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كل الحزن، ويتألم كل الألم، ويقول: «سحقا.. سحقا..!!.. أى: بُعْدًا لهم ثم بعدا.. بعدا لهم عن رحمة الله - تعالى - بعدا لا يشمون معه رائحة الجنة، مع أن رائحتها تُشم على بعد أربعين سنة.. بُعدا لا يرون[1] معه نعيمها..!

فليحذر هؤلاء الذين يخالفون عن أمره، فيبتدعون فى دين الله ماليس منه، وليعلموا أنه لا نجاة لهم يوم القيامة، إلا باتباع هذا الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - وحسن الاقتداء به..!

---

(١) يراجع فى هذا الموضوع الجزء الثالث من كتاب المؤلف (قبس من الهدى النبوى).. فقد تناولناه هناك بكثير من التفصيل.

**وعـــن:**

## ٣ ـ وجوب نصرته صلى الله عليه وسلم ..

## يقـــول:

﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾(١).

لعل من أبرز آثار محبة المسلم لنبيه ورسوله محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يبذل المسلم المحب ذات نفسه، فداء لمن أخرجه من عمى الجهالة، وظلام الضلالة، إلى نور الإيمان والمعرفة والهداية.. فداء لحبيبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحماية للمبادئ السامية الرفيعة التى جاء بها من عند رب العالمين ـ سبحانه وتعالى ـ والتعاليم السمحة التى دعا إليها.. وحفاظا على هذا الدين الحنيف الذى حمل الخير

(١) سورة الأعراف: ١٥٧.

الدنيوى والأخروى للبشرية كلها.. ونصرة لمن خالط حبه قلبه، وملك مسالك فكره.. قال ـ سبحانه وتعالى:ـ

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ﴾(١).

إن الإيمان الصادق برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونصرة دينه القويم، واتباع «النور الذى أنزل معه».. هو طريق المؤمن إلى الفوز والفلاح فى الدنيا والآخرة:

﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾(٢)

***

## * كيف ننصره صلي الله عليه وسلم..؟

إن نصرنا لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو حفاظنا على المبادئ التى شرفنا الله ـ تعالى ـ بحملها، وجاءنا بها هذا النبى الكريم، والتى هى كفيلة بهداية البشرية الحائرة الضالة، وإخراجها من الظلمات إلى النور.

وهذه المبادئ هى: إقامة حدود الله، والمحافظة على

---

(١) سورة التوبة: ١٢٠.

(٢) سورة الأعراف: ١٥٧.

طاعته ـ سبحانه ـ وإحياء سنته ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإقامة أركان ديننا الإسلامى الحنيف، والتى من أهمها، إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر.. تلك المبادئ الرشيدة التى بينها رب العالمين ـ سبحانه وتعالى ـ فى قوله:

﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾(١).

إن نصر الله ـ تبارك وتعالى ـ لعباده مرهون بنصرهم هم له ـ سبحانه ـ ولرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونصرنا لله معناه إحياء مبادئ شرعه الحكيم، وسنة نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ.. حينذاك نكون جديرين بنصر الله لنا وتأييده ومدده..!!

إن نصرنا لله ولرسوله.. معناه أيضا: الحفاظ على هذا الدين، والجهاد من أجل إعلاء كلمته، ورفع رايته عزيزة خفاقة مهابة.. والتضحية بالنفس والمال، وبكل نفيس وغالٍ..!

(١) سورة الحج: ٤٠، ٤١.

ورحم الله سلفنا الصالح ورضى عنهم؛ لقد ضحوا تضحيات لا مثيل لها فى سبيل نصرة الله ورسوله، وضربوا أروع الأمثال فى بذل أرواحهم وحياتهم فداء لنبيهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحفاظا على ماجاء به.. عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال: غاب عمى أنس بن النضر ـ رضى الله عنه ـ عن قتال بدر، فقال: يارسول الله غبت عن أول قتال قاتلت المشركين، لئن الله أشهدنى قتال المشركين ليرين الله ما أصنع.. فلما كان يوم أحد، انكشف المسلمون، فقال: اللهم أعتذر إليك مما صنع هؤلاء ـ يعنى أصحابه ـ وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء ـ يعنى المشركين ـ ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ، فقال: يا سعد بن معاذ.. الجنة ورب الكعبة، إنى أجد ريحها من دون أحد..! قال سعد: فما استطعت يارسول الله ما صنع، قال أنس: فوجدنا به بضعا وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة بالرمح أو رمية بسهم، ووجدناه قُتل ومثَّل به المشركون.. فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه..! قال أنس: كنا نرى أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفى أشباهه:

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾(١).

---

(١) رواه البخارى.

وهذا زميله فى الكفاح والتضحية والاستشهاد فى الغزوة نفسها: «عبد الله بن عمرو بن حرام»، والد الصحابى الجليل جابربن عبد الله ـ رضى الله عنهما ـ يخرج إلى غزوة أحد وهو طامع فى الاستشهاد، ومن صدق إحساسه تراءى له مصرعه قبل أن يخرج إليها، وغمره إحساس صادق بأنه لن يعود.. وكاد قلبه يطير من الفرح لهذا الإحساس العجيب، فدعا ابنه «جابرا» وقال له: إنى لا أرانى إلا مقتولا فى هذه الغزوة، بل لعلى سأكون أول شهدائها من المسلمين، وإنى ـ والله ـ لا أدع أحدا بعدى أحب إلىَّ منك بعد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإن علىَّ دينا فاقض عنى دينى، واستوص بإخوتك خيرا..!

وخرج المسلمون فى صبيحة اليوم التالى إلى لقاء قريش، ولما التقى الجمعان، دارت رحى معركة رهيبة، قاتل فيها عبد الله بن عمرو قتال مودِّع وشهيد.

وفى نهاية المعركة وُجد ـ رضى الله عنه ـ بين الشهداء وقد مثل به المشركون كما مثلوا بغيره من الأبطال، ووقف ابنه جابر وبعض أهله يبكون شهيد الإسلام عبد الله بن عمرو، ومر بهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهم يبكون، فقال: «**ابكوه.. أو لاتبكوه.. فإن الملائكة لتظله بأجنحتها..!!**»

هذان نموذجان من نماذج لا حصر لها من نصرة سلفنا الصالح لله ولرسوله.. نصرة بأثمن شئ فى الدنيا.. بالروح والحياة معا.. وهكذا ينبغى أن تكون نصرتنا لله ـ سبحانه وتعالى ـ ولرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بكل ما هو غالٍ ونفيس..!!

**وأخيرا.. عــن:**

## ٤ ـ وجوب الصلاة والسلام عليه صلي الله عليـه وسلـم ..

# يقـــول:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾(١).

يخبر رب العالمين ـ سبحانه وتعالى ـ عباده فى هذا القول الكريم، من الذكر الحكيم بمكانة حبيبه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ التى لا تدانى، ومنزلته التى لا تسامى... تلك المنزلة السامية الرفيعة التى لم ينلها واحد من الخلق، لا ملك مقرب، ولا نبى مرسل، وخُص بها إمام الأنبياء وخاتم المرسلين ـ صلوات الله وسلامه عليه..

(١) سورة الأحزاب: ٥٦.

إن هذه الآية الكريمة وسام شرف وفخار أنعم به الفعال لما يريد، القادر المهيمن، رب العالمين - عز وجل - على حبيبه وصفوته من خلقه محمد - صلى الله عليه وسلم - وهى كشف وبيان لمكانته التى لا تضارع فى الملأ الأعلى..؟

لقد أخبرنا - سبحانه وتعالى - بأنه يصلى على حبيبه محمد، وأن ملائكته الكرام يصلون عليه، وأمرنا أن نقتدى به - عز وجل - وبملائكته الكرام، فنصلى ونسلم عليه دون الأنبياء والمرسلين جميعا، تشريفا له، وتكريما، وإعلاء لمنزلته، ورفعا لدرجته، وبيانا لعظيم فضله، وجليل قدره..!

والصلاة من الله - سبحانه وتعالى - عليه. قيل: الثناء عليه فى الملأ الأعلى، وقيل: الرحمة، ومن الملائكة: الاستغفار، ومنا نحن: طلب علو المنزلة والدرجة له صلى الله عليه وسلم.

### * حكم الصلاة عليه:

قال القرطبى: ولا خلاف فى أن الصلاة عليه فرض فى العمر مرة، وفى كل حين من الواجبات وجوب السنن المؤكدة التى لايسع تركها ولا يغفلها إلا من لا خير فيه.. ا هـ.

إن الصلاة على رسول - صلى الله عليه وسلم - واجبة بالإجماع، لكنهم اختلفوا فى حال وجوبها.. على مايأتى:

أ ـ أنها واجبة كلما جرى ذكره . . ويُروى أنه قيل له : يا رسول الله . . أرأيت قول الله ـ عز وجل ـ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ ﴾(١)

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : **«هذا من العلم المكنون، ولولا أنكم سألتمونى عنه ما أخبرتكم به . . إن الله تعالى وكَّل بى ملكين فلا أذكر عند مسلم فيصلّى علىَّ إلا قال ذلك الملكان : غفر الله لك، وقال الله ـ تعالى ـ وملائكته جوابا لذينك الملكين : آمين . . ولا أذكر عند عبد مسلم فلا يصلى علىَّ إلا قال ذلك الملكان : لاغفر الله لك، وقال الله تعالى ـ وملائكته لذينك الملكين : آمين»**(٢).

وعن كعب بن عجرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : «احضروا المنبر» فحضرنا، فلما صعد الدرجة الأولى، قال : «آمين» فلما صعد الدرجة الثانية، قال : «آمين»، فلما صعد الدرجة الثالثة، قال «آمين»، فلما نزل قلنا : يارسول الله . . سمعنا منك شيئا لم تكن تصنعه . . ؟ فقال : **«عرض لى جبريل، فلما كنت على الدرجة الأولى ، قال : بَعُدَ من ذكرت عنده فلم يصل عليك ، فقلت آمين، فلما رقيت الدرجة الثانية ، قال : بَعُد من أدركه شهر رمضان فلم يغفر**

---

(١) سورة الأحزاب : ٥٦ .

(٢) ذكره القرطبى .

**له، فقلت: آمين، فلما رقيت الدرجة الثالثة، قال: بَعُد من أدرك أبويه عنده الكبرُ أو أحدهما فلم يدخلاه الجنة، فقلت: آمين».**

وروى الترمذى بسند ينتهى إلى أبى هريرة، أن رسـول اللـه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: **«رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل علىَّ، ورغم أنف رجل دخل عليه شهر رمضان ثم انسلخ قبل أن يغفر له، ورغم أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبر فلم يدخلاه الجنه».**

وروى أحمد بسنده عن على بن الحسين عن أبيه، أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم قال: **«البخيل من ذكرت عنده ثم لم يصلِّ علىَّ».**

هذه الأحاديث كلها تلزم المسلم أن يصلى على رسـول اللـه ـ صلى الله عليه وسلم ـ عندما يذكر اسمه الشريف أمامه، فإن لم يفعل فهو مُبعد عن رحمة الله ـ سبحانه ـ كما فى حديث كعب بن عجرة، مرغم الأنف كما فى حديث أبى هريرة، بخيل كما فى حديث على.. وهذا كله يقوى الرأى القائل بوجوبها عند جريان ذكره.

ب ـ أنها تجب فى كل مجلس مرة.. روى الترمذى عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: **«ماجلس قوم مجلسا لم يذكروا الله فيه، ولم يصلوا**

**على نبيهم، إلا كان عليهم ترة[1] يوم القيامة، فإن شاء عذبهم، وإن شاء غفر لهم».**

وروى إسماعيل القاضي عن أبى سعيد أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: **«مامن قوم يقعدون ثم يقومون ولا يصلون على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا كان عليهم يوم القيامة حسرة وإن دخلوا الجنة، لما يرون من الثواب».**

ج ـ أما الصلاة على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الصلاة.. فالجمهور على أنها من سنة الصلاة ومستحباتها.. ويرى الشافعى أنها فرض فى التشهد الأخير، وعلى من تركها إعادة الصلاة سواء كان ناسيا أو متعمدا، وأوجب إسحق بن راهويه الإعادة فى العمد دون النسيان، وذهب إلى وجوبها فى الصلاة محمد بن الموَّاز من المالكية وأحمد بن حنبل فيما حكاه عنه أبو زرعة الدمشقى، واختاره ابن العربى.. لما رواه أحمد وأبو داود والنسائى وابن خزيمة وابن حبان والحاكم فى مستدركه بسند ينتهى إلى أبى مسعود البدرى: أنهم قالوا: يا رسول الله .. أما السلام فقد عرفناه فكيف نصلى عليك إذا نحن صلينا فى صلاتنا؟ فقال: **«قولوا: اللهم صل علي محمد وعلي آل محمد كما صليت علي آل إبراهيم، وبارك علي محمد وعلي آل محمد كما باركت علي آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد، والسلام كما قد علمتم».** وتلك هى صفة الصلاة عليه ـ صلى الله عليه وسلم...

---

(١)أى : حسرة.

* **فضل الصلاة عليه:**

إن للصلاة على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فضلا عظيما، وثوابا جزيلا، كشف عنه رسول الله نفسه فى أحاديث كثيرة، نشير إلى بعضها هنا؛ لنعرف مدى الفضل الذى يحوزه ويفوز به من أكثر من الصلاة والسلام عليه:

١ ـ الملائكة تصلى على من يصلى عليه.. روى أحمد عن شعبة عن عاصم بن عبيد الله، أنه قال: سمعت عبد الله بن عامر بن ربيعة يحدث عن أبيه، أنه قال: سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول: **«من صلي عليَّ صلاة لم تزل الملائكة تصلي عليه ما صلي عليَّ، فليُقلَّ عبد من ذلك أو يكثر»**.

٢ ـ أحق الناس بشفاعته ـ صلى الله عليه وسلم ـ مَن يكثرون من الصلاة والسلام عليه.. روى الترمذى عن عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: **«أولي الناس بي يوم القيامة أكثرهم عليَّ صلاة»**.

٣ ـ فى الصلاة والسلام كثيرا، تفريج لهموم الدنيا، وهموم الآخرة.. روى أحمد عن الطفيل بن أبى عن أبيه، أن رجلا قال: يارسول الله.. أرأيت إن جعلت صلاتى كلها عليك..، فقال: **«إذن يكفيك الله ما أهمك من دنياك وآخرتك»**.

٤ ـ فى الصلاة والسلام عليه.. شرف لامثيل له.. إذ يصلى رب العالمين ـ عز وجل ـ على من يصلى عليه ـ صلى

الله عليه وسلم ـ ورفع لدرجات من يصلى عليه.. وتكفير لسيئاته.. روى مسلم عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أنه قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: **«من صلّي عليّ واحدة صلي الله عليه بها عشرا»**.. وروى الإمام أحمد عن أبى طلحة الأنصارى، قال: أصبح رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوما طيب النفس يرى فى وجهه البشر، قالوا: يارسول الله .. أصبحت اليوم طيب النفس.. يرى فى وجهك البشر، قال: **«أجل.. أتاني آت من ربي ـ عز وجل ـ فقال: من صلي عليك من أمتك صلاة كتب الله له بها عشر حسنات ومحا عنه عشر سيئات.. ورفع له عشر درجات.. ورد عليه مثلها»**.

٥ ـ وأخيرا.. فالصلاة على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ تطهير للمرء.. وعلو لمنزلته عند الله ـ عز وجل ـ روى أحمد عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: **«صلوا عليّ.. فإنها زكاة لكم.. وسلوا الله لي الوسيلة فإنها درجة في أعلي الجنة، ولاينالها إلا رجل، وأرجو أن أكون أنا هو»**.

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا وحبيبنا محمد، وعلى آل محمد، كما صليت ورحمت وباركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد.
اللهم واجعله شفيعا لى ولوالدىَّ ولآلى، ياذا الجلال والإكرام.

**«والحمد لله رب العالمين»**

# المـراجـع

القرآن الكريم
صحيحا البخارى، ومسلم
الترمذى وأبو داود
الموطأ للإمام مالك
مسند الإمام أحمد
المستدرك للحاكم
دلائل النبوة للبيهقى
الشفاء للقاضى عياض
سيرة ابن هشام
سيرة ابن كثير
الروض الأنف للسهيلى
البستان للقيروانى
فتح القدير للشوكانى

# المحتويات

# كتب للمؤلف

١ ـ طريق النجاة
٢ ـ سمات المسلم
٣ ـ في رحاب شهر الهدي والفرقان.
٤ ـ قبس من الهدي النبوي ٤ أجزاء.
٥ ـ سلاح الواعظ والخطيب في مواجهة تيارات الإلحاد ومشاكل العصر.

## هذا الكتاب

إن هذا الكتاب ليس كتاب تفسير أو كتاب سيرة أو تاريخ بالمعنى العلمي لهذا المفهوم ، ولكنه خواطر أملاها الحب الصادق للقرآن الكريم، ولِمَنْ نَزَلَ عليه القرآن . .

لقد تحدث القرآن الكريم عن رسول الله ﷺ حديثاً مستفيضاً تناول فيه إنسانيته ، وأخلاقياته السامية التى لم يُدَانِهِ فيها بَشَرٌ مّـا . وتحدَّث عن سلوكياته التى عَلاَ فيها عَمَّنْ سواه ، وصفاته التى لم يضارعه فيها أحد من الناس أجمعين .

ويسر الدار المصرية اللبنانية أن تقدم للقراء هذا الكتاب الذى يتناول الكثير من جوانب عظمة الرسول ﷺ وسيرته العطرة ، والمهام التى كُلِّفَ بها ، والتى من أجلها بُعِثَ إلى الناس ، فكان النموذجَ الحىَّ للإنسان الكامل . . كل ذلك بأسلوب سَلِسٍ عَذْب وقوة منطق وإقناع .

إنه كتاب ثمين يهم كل مسلم .

**الناشر**

الدار المصرية اللبنانية
طباعة • نشر • توزيع
١٦ شارع عبدالخالق ثروت- تليفون ٣٩٢٣٥٢٥ - ٣٩٣٦٧٤٣- فاكس: ٣٩٠٩٦١٨- برقياً: دار شادو- ص.ب: ٢٠٢٢- القاهرة
AL-DAR AL-MASRIAH AL-LUBNANIAH PRINTING — PUBLISHING — DISTRIBUTION
16 ABD EL KHALEK SARWAT St, P.O.Box 2022-Cairo-Egypt PHONE: 3936743-3923525 FAX: 3909618 CABLE DARSHADO